عنوان الكتاب: أخلاقيات الحرب من منظور الإسلام

مقدم الكتــاب: أحمد محمد الشنوانى
الباحث والكاتب الصحفى
بدار الهلال الصحفية
جمهورية مصر العربية
ت: ٠٠٢٠٢٨٩٤٠٠٨٩
٠٠٢٠١٠٥٢٧٢٩٢٢

أخلاقيات الحرب

من

منظور الإسلام

أحمد الشنوانى

مقدمة الكتاب

الإسلام دين الأمن والسلام، هذه حقيقة واضحة لا تقبل الشك، ولا ترقى إليها الريبة هذا اعتقاد قديم منذ أبعد الحقب، وأقدم الأزمان، لا يخالجه خطأ ولا يداخله خطل.

وقد حاول لفيف من المستشرقين أن يرموا الإسلام بأعنف الاتهام، وادعوا أنه انتشر بحد السيف بيد أن هذه الادعاءات لم تثبت أمام العلم، ولم تقف صامدة إزاء التاريخ، فإن الدلائل كلها واضحة، وإن البراهين كلها دامغة بأن الإسلام لم يكن فى يوم من الأيام دين العنف أو البطش، ودين الظلم أو العدوان، إنما كان دين السلام والأمان، ودين الحرية والمساواة والإخاء، قبلما ترتفع هذه الشعارات فى أى بقعة من بقاع الأرض، وقبلما ينطق الداعون بها فى أى مكان من المعمورة.

لقد استطاع الإسلام بجانحين من الأمن والسلام أن ينشر فكرته فى شتى الأصقاع، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً، ورفرفت ألوية الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها، وامتد الإسلام عبر جبل طارق على أسبانيا، ولم تقف جبال البرانس عقبة فى سبيل امتداده فنشر ألويته على جنوب فرنسا، وإيطاليا، وشتى أرجاء أوروبا، وتدفقت أمواجه المتتابعة عبر آسيا، فوصلت إلى الهند والصين واليابان وروسيا.

وتوغل الإسلام فى جزر المحيط الهادى وجزر المحيط الهندى، وحمله الفلك إلى الأماكن البعيدة، والمواطن القصية.

وعم نور الإسلام البحر الأبيض المتوسط، فدلف إلى جزيرة صقلية، ومالطة، وكريت، وقبرص، ورودس وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط.

وكذلك استطاع الإسلام أن ينشر أشعته النورانية فى العالم الجديد، فوصل إلى أمريكا الشمالية وانتشر فى أمريكا الجنوبية.

وكان له فى العالم الجديد دعاة وأنصار، وأقارب وأصهار، وأعوان وإخوان يجاهدون فى سبيله بالأموال ويبذلون من أجله كل مرتخص وغال، ويضحون فى سبيل نشره بالمهج والأرواح.

والإسلام فى هذا الانتشار العظيم، وهذا الامتداد الفسيح، لا يؤمن بسياسة القهر والسطو، واستلاب الحرمات، إنما يؤمن إيماناً عميقاً بضرورة نشر الأمن بين الناس، ويسعى فى طريق تحقيق السلام، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد تحدث الله فى كتابه العزيز عن الأمن والأمان فقال جل وعلا: وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿الأنعام/٨١﴾ ،

كما قال تعالى: "فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون" وقال تعالى: وإذا وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿البقرة/١٢٥﴾، كما قال جلت صفاته: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿النور/٥٥﴾، فالأمن أمنية حلوة، وأنشودة عذبة، يتطلع إليها الحيارى، ويهفو إليها كل من اضطربت نفسه، واهتاج لبه، وتشتت فكره.

والأمن غاية عزيزة، ورغبة جليلة تقشع عن القلوب الوجل، وتزيل عنها الغشاوة، وتبدد منها البلبلة والوسواس.

وقد جعل الإسلام السلام تحية متعارفة بين المسلمين، فإذا حيا المسلم مسلما قال له: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" وإذا صلى المسلم أنهى تشهده بقوله: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" كما جعل الإسلام التحية التى تقال لأهل الجنة "سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" كما جعل تحية المسلمين يوم البعث والنشور "تحيتهم يوم يلقونه سلام"

كما يقول الله تعالى فى كتابه العزيز تكريما لأهل الجنة الصالحين، وعبادة الأبرار الصالحين: وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿الزمر/٧٣﴾، كما يقول تعالى أيضاً: "ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود".

وأمر الله تعالى عباده بالتسليم على النبى فقال جلت صفاته وتعالت آلاؤه: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿الأحزاب/٥٦﴾ كما أن الله تعالى يكرر فى ثنايا كتابه العزيز السلام على الأنبياء والمرسلين تكريماً لهم وإعزازاً لشأنهم، وتعريفاً بفضلهم فقال تعالى: سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿الصافات/٧٩﴾ ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿الصافات/١٠٩﴾ ، سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿الصافات/١٢٠﴾ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿الصافات/١٣٠﴾

وفى سورة مريم يقول تعالى على لسان عيسى عليه السلام: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿مريم/٣٣﴾

وغنى عن البيان أن المسلمين يرددون فى كل صلاة لفظة السلام "أربعاً وعشرين مرة" وهذه آية واضحة، ودليل ناصع على حب المسلمين للسلام وتعلقهم بأهدابه، واعتزازهم به وحرصهم عليه، وذودهم عنه.

وقد عرض الإسلام قواعد سليمة لكفالة الأمن والسلام فى الداخل والخارج، واستحدث نظما وشرائع للمحافظة على حياة الناس، وأرواحهم، وأملاكهم، وشرفهم ووضع الحدود وبينها، كما وضح الفقهاء وجوه التعزيز، لمؤاخذة المذنب، ومعاقبة المتهم، والضرب على أيدى العابثين بالنظام العام، المستهينين بالشرائع الإسلامية التى يتحقق منها سعادة البلاد والعباد.

كما وضع الإسلام قواعد سليمة لحفظ الأمن والسلام الخارجى بين المسلمين وجيرانهم أو غيرهم من الدول، ورعاياها، مما يعتبر قانوناً دولياً رشيداً، ونظاما عالميا سديدا يدرأ الحروب، ويمنع التوتر الدولى، ويكفل الأمن والسلام بين الدول جميعاً.

ولقد عُنى الإسلام كل العناية بالناحية الخلقية، عنى بتهذيب النفوس، وتطهير القلوب، ونشر المثل العليا فى الأخلاق والأداب، وقد خاطب الله رسوله بقوله عز وجل: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿القلم/٤﴾ وقال النبى ﷺ "أدبنى ربى فأحسن تأديبى" وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وأنشرها فى خير أمة أخرجت للناس وهى الأمة الإسلامية.

وكان من أثر هذا الخلق الكريم والذى غرسه الرسول ﷺ فى نفوس صحابته أن قوى المجتمع الإسلامى قوة ناهز بها جميع الأمم المعادية واستولى على نواصى الجبابرة حتى فتحت لهم الآفاق وانساحوا فى الأرض يبشرون بدعوة الحق فتلوذ الناس بهم وتعتصم بعدالتهم ويتسابقون إلى الدخول فى دين الحق.

ولئن كانت العقيدة المحمدية تكفل للمسلمين سلامة الخُلق وصدق الإخاء، والجنوح إلى السلم والعفو عند المقدرة،فإنها لكذلك تحيلهم إلى عشق الشهادة إذا مس حقهم بظلم أو تهددهم عدوان.

ومن يوم أن بعث الله محمدا ﷺ ، دعاه إلى مخاطبة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتى هى أحسن، وأن يدعوهم إلى عبادة خالق السموات والأرض باللين والكلمة الطيبة، يقول تعالى: ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿النحل/١٢٥﴾ وبقوله تعالى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة/٢٥٦﴾

لكنه قوبل بالصد والعدوان والبهتان، وعذب أصحابه لا لشئ إلا أن يقولوا ربنا الله. وجودل بالتكذيب والتنكيل.

كما سعى عليه الصلاة والسلام إلى تأكيد روح الإخوة الإنسانية بين الناس جميعاً وأنهى الدعوة إلى العصبية القبلية إعلاء لشأن أفضل المخلوقات، وخليفة الله فى أرضه حتى تقوم بين العالم كله علاقة المودة والرحمة والتسامح. ويتم التعارف وتبادل المنافع لما فيه خير الإنسان وسعادته بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿الحجرات/١٣﴾ فلا فضل لأبيض على أسود ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. فالكل سواء أمام الواحد القهار.

ولذلك كان السلام هو أصل العلاقة فى الإسلام. أما الحرب فأمر عارض شُرع على كراهته لتحقيق السلام نفسه يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿البقرة/٢٠٨﴾

ولكن هل يقف الإسلام مكتوف الأيدى أمام أعدائه الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم. ويقضون على عبادة التوحيد. فتظل الدنيا فى لجج من الفوضى والظلام! أيقف أمام السلاح وقد شهر فى وجهه؟ والمسلمون يومئذ قلة لا يملكون من أسباب القوة والمنعة إلا ذلك الشعاع الوضاء الذى ينبض فى قلوبهم. والإيمان الراسخ بأن الله معهم.

وحرصاً على السلام نفسه أمر الله سبحانه وتعالى أن يستعد المسلمون مادياً ومعنوياً لإرهاب الأعداء فلا تسول لهم أنفسهم المباغتة والهجوم منعاً من إراقة الدماء

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿الأنفال/٦٠﴾ "فإذا استمر العداء واستفحل الإيذاء ورفع السيف، فلابد من رفع السيف بالمثل ولا يفل الحديد إلا الحديد ، أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿الحج/٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿الحج/٤٠﴾ ، ذلك لأنه لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة/٢٥٦﴾

ومن هنا كان فرض القتال فى الإسلام على كراهته. كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة/٢١٦﴾ لرد الاعتداء أو منعه إذا تأكدت نية العدو فى الهجوم، أو حماية للحرية الدينية ومنع فتنة المؤمنين أو للدفاع عن الوطن الذى لا يقل أهميته عن الشرف والمعاش.

وعلى ذلك فإن الإسلام بعد أن اتخذ كل الأسباب لإنقاذ الصدام، قيد القتال فلا يقوم إلا لدواع مشروعة وعادلة وهى أساساً، وبالدرجة الأولى لإقرار السلام نفسه.

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿البقرة/١٩٤﴾ ، ويقول جل شأنه وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴿البقرة ١٩٠/١٩١﴾

فإباحة القتال مرهونة بموقف الأعداء، ولا يكون رد الاعتداء إلا بالقدر الكافى لإقرار السلام. وإنهاء الحرب. ولا يجاوز حدود الدفاع والإرهاب والمعاملة بالمثل. يقول تعالى:
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴿النحل/١٢٦﴾ ويقول عز وجل:
الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿البقرة/١٩٤﴾

فمراعاة تقوى الله هنا معناها التمسك بالفضيلة ولذلك قيد الإسلام القتال فى الميدان بقيود من أخلاقياته حتى لا ينساق المسلمون وراء عدو قد تجرد من الأخلاقيات الواجب مراعاتها فيجارونه فى أفعاله.

وقد سر عمر بن الخطاب سرورا بالغا حين انتصر جيش المسلمين بأقل عدد ممكن من قتلى العدو. ومدح قائده عمرو بن العاص فقال: "تعجبنى حرب ابن العاص إنها حرب رفيقه".

فالإسلام له السبق فى إيجاد نظام شامل للحرب يتسم بالرحمة والعدل وحُسن المعاملة. وهذا ثابت مما تضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية العملية والقولية وأعمال الخلفاء ومن تقنين شامل للحرب منذ أكثر من أربع عشرة قرناً

ومن آداب ومبادئ القتال فى الإسلام والتى سنتناولها بالتفصيل فى هذا الكتاب مذكرين بأن ما نعنيه بآداب القتال تلك المسائل التى تتعلق بتقويم الأخلاق، والتمسك بالفضيلة، ومؤكدين على أن هذه الآداب تنطلق من طبيعة الإسلام الذى اختاره الله دينا لإصلاح الحياة وإنقاذ البشرية، ومن ثم فالتزام المسلم بهذه الآداب مع أعدائه عند قتالهم أمر لا يخضع للتغيير والتبديل زماناً ومكاناً لأنه التزام عقيدى يدفع المسلم على تنفيذه طاعته لله ولرسوله "صلى الله عليه وسلم".

فمن آداب وأخلاقيات القتال فى الإسلام:

- أدب الإسلام مع القتلى والجرحى والمرضى
- عدم إجازة قتل الأطفال والنساء والشيوخ وإن كان العدو يفعل ذلك
- عدم إجازة أن يتعدى ميدان المعركة إلى الآمنين فى ديارهم من المدنيين أو الذين ألقوا سلاحهم من جيش العدو
- أدب الإسلام مع أسرى الأعداء
- أدب الإسلام مع المغلوب
- رعاية أسر الشهداء والمصابين
- الوفاء بالعهود والمواثيق

تلك أخلاقيات القتال فى الإسلام وضوابطه التى حددها القرآن وسُنة المصطفى عليه السلام، وهى فى مرتبة الفرائض الملزمة

لقد كان فرض القتال فى الإسلام دفاعاً شرعياً عن النفس والعقيدة والوطن، وليس من العدل ولا من الحق أن يجور القوى على الضعيف فيسلبه حقه، وليس أيضاً من العدل أن يضيع الحق خضوعاً للأمر الواقع.

والجهاد ماضـــى إلى يوم القيامة مادام الصـــراع بين الحق والباطل ومادام العدل والظلم يتصـــارعان فإن كان الاعتداء ظلماً فدفعه عدل، فلا يقف المظلوم مكتوف الأيدى أمام المعتدى ولابد من زجره فيما اعتدى ظلماً وعدواناً.

ومن هنا – عزيزى القارئ- تجد أن الإسـلام قد حدد الحرب المشـروعة بأنها تلك التى تكون لصـــالح الحق والعدل والســـلام وقد اعترف شـــارعوا القانون الدولى العام للدين الإسلامى بالسبق فى تعريف الحرب المشروعة وغير المشروعة.

وهناك فرق كبير بين أن يفرض القتال وتحدد ضوابطه من الله ورسوله "صلى الله عليه وسلم" وبين أن يفرض القتال لتحقيق مطامع الإنسان.

وبعد.. فإننا سـوف نتناول بالتفصـيل فى هذا الكتاب آداب وأخلاقيات القتال من منظور الإسلام والتى تتسم دائماً بالرحمة والعدل وحُسن المعاملة من خلال ما تضمنته آيات القرآن الكريم والسُـــنة والســـيرة النبوية المطهرة العملية منها والقولية مؤكدين على أن تلك الأخلاقيات لا تعنى إلا بتقويم الأخلاق والتمسك بالفضيلة.

وما أردت إلا الخير.. وعلى الله قصد السبيل

والحمد لله حمد الشاكرين

أحمد الشنوانى

محتوى الكتاب

النبى الرحمة.. وما أرسلناك
إلا رحمة للعالمين

باسم الله كتب لنفسه العزة ولرسوله والمؤمنين، وصلوات الله وسلامه على نبى الكرامة وقائد الأحرار إلى النصر المبين، ورضوان الله على أصحابه الذين سجلوا على جبين التاريخ صفحات تتلألأ بنور البطولة والفداء وآيات الإيمان واليقين، حين أن كانت البشرية غارقة فى ظلام كثيف صفيق وظلم غليظ راسخ تتخبط فى عقائدها، تزيف فى أفكارها، تصطنع للظلم فلسفة وللضلال شريعة ومبادئ، وفى وسط هذا الجو الخانق منذ أكثر من أربعة عشر قرنا انبثق النور بمولد محمد بن عبد الله الذى أعده الله للبشرية ليبشرهم بالحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم، انبثق النور من أعماق الجزيرة العربية رحمة لا تعرف التفرقة بين جنس وجنس، وهدى لا يدين إلا بالحق، ولا يتعصب إلا له وكانت كلمة الله هى العليا، وكانت رسالة محمد بحق رحمة للعالمين، لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿آل عمران/١٦٤﴾

جاء محمد صلوات الله عليه يدعو إلى الإيمان بإله واحد ويتخذ من هذا الإيمان حجر الأساس للشريعة الجديدة حتى لا تتجه القلوب إلا إليه ولا ترعى فى حياتها غيره ولا تبتغى المثوبة إلا منه ولا تخشى فى سبيله لومة لائم.

كانت أولى خطواته الإصلاحية الدعوة إلى إله واحد لا شريك له، وذلك هو أساس دعوة الأنبياء والرسل من قبله. يقول الله سبحانه: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿النحل/٣٦﴾ ويقول سبحانه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿الأنبياء/٢٥﴾ لقد اصطفاه الله من بين خلقه ليكون خاتم النبيين، يوجه البشرية كلها إلى الصراط المستقيم وشاءت حكمته جل شأنه أن يكون نبيه المصطفى قد نشأ يتيماً فقيراً بعيداً عن الجاه والسلطان، لم يعلمه بشر، ولم يتعهده بالرعاية والتوجيه إنسان وإنما أدبه ربه فأحسن تأديبه وقوّم خلقه فأحسن تقويمه ورعاه فأحسن رعايته، وغرس فى نفسه مبادئ الخير والبر والتعاون واستأصل من نفسه كل معانى الشر وصدق الله إذ يقول: مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿الضحى/٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿الضحى٣/٨﴾

اصطفاه ربه وطهر نفسه وعلمه وأدبه، فكان خير تلميذ لأفضل أستاذ، وكانت رسالته أساسها التوجيه إلى العلم والخلق والكفاح فى سبيل العمل النافع، والجهاد فى سبيل الحق ومقاومة البغى والطغيان.

وكان المثل الأولى فى مظاهر التحرر الإسلامى فهو عبد الله ورسوله القائل "لا تعظمونى كما تعظم الأعاجم ملوكها" وقد تبرأ أن يكون شفيعاً فى تغيير منزلة فيقول: "يا فاطمة يا بنت محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئاً، ". يا عباس يا عم محمد اعمل لا أغنى عنك من الله شيئاً". وكان لذلك أثره فى نفوس صحابته والمسلمين فقويت عقيدتهم، وازدادوا إيماناً على إيمانهم، فكان لهم شأن وجاه لا بالمال ولا بالسلاح ولا بكثرة الأفراد وإنما بما غرسته العقيدة الصادقة فى نفوسهم من قوة وصلابة فى الحق.

وفى الحق أن العقيدة دائماً هى القوة التى تدفع إلى العمل وتشحذ الهمم وتحول دون الانهيار والضعف.. وبهذا الإيمان وحده غرس النبى ﷺ فى أتباعه معانى الفضيلة فشاعت فيهم خصال الخير، وبهذا الإيمان وحده التزم المسلمون جادة الصواب يستمسكون بالفضيلة حباً فيها ويهربون من الشر بغضاً فيه، شعارهم ما علمهم إياه الرسول "أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

ولقد كانت مثالية النبى ﷺ فى الخلق الرفيع أكبر حافز لهم على أن يتنافسوا فى القرب من معانيه العظيمة بعد أن لمسوا فيها كل الخير والسعادة وعرفوا وصف الله له بقوله: وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿ القلم/٤ ﴾ وقد كان ذلك الوصف الآلهى داعياً لاهتمام الصحابة وتطلعهم إلى تصرف ذلك الخلق العظيم فسألوا السيدة عائشة عن خُلق النبى ﷺ فقالت "كان خُلقه القرآن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند حدوده" ولقد صدقت فيما وصفت فقد كان هذا القرآن الكريم هو رضاه وسخطه، به يصادق وفيه يعادى، ولا تأخذه هوادة فى تنفيذ حكم من أحكامه.

ولقد عرف له صلوات الله عليه هذا الخلق منذ قام يدعو إلى ربه وقامت رءوس الشرك تناهضه فى دعوته وتحتال لصرفه عن وجهته بالترغيب تارة والترهيب أخرى. فما أغراه ما عرضوا وما أثناه ما فعلوا ووقف فى فم الدنيا يقول: "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته".

ومن أجل استمساكه بالحق ألغى الفوارق وحاربها وجعل معيار التفاضل التقوى والعمل النافع، وكان يحرص على غرس هذا المعنى فى نفوس أصحابه والناس جميعاً، فغضب لما استشفع أحد صحابته فى حد من حدود الله استجابة لرجاء كبار قريش

وقال أيها الناس: "إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سـرق فيهم الشـريف تركوه وإذا سـرق فيهم الضـعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفسـى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سـرقت لقطع محمد يدها" ولما حرم الله الربا بأثر رجعى فكان أول من نفذ عليه ذلك هو عمه العباس إذ يقول: "أن أول ربا أضعه فى الجاهلية هو ربا عمه العباس".

وفى هذا أعظم توجيه إلى تقديس خلق المسـاواة فى الحقوق، وقد ترك هذا التوجيه آثار كريمة فى نفوس أصحابه حتى أقام عمر الحد على ابنه، ولما اعتدى ابن أحد الولاة على أحد أفراد الرعية بغير حق معتزا بأنه ابن الأكرمين، أمر عمر بن الخطاب المعتدى عليه أن يقتص لنفسـه قائلاً: اضـرب ابن الأكرمين. ثم قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

وكان من أثر هذا الخلق الذى غرسه الرسول ﷺ فى نفوس صحابته أن قوى المجتمع الإسلامى قوة ناهز بها جميع الأمم المعادية واستولى على نواصى الجبابرة حتى فتحت لهم الآفاق وانسـاحوا فى الأرض يبشـرون بدعوة الحق فتلوذ الناس بهم وتعتصم بعدالتهم ويتسابقون إلى الدخول فى دين الحق.

ولئن كانت العقيدة المحمدية تكفل للمسـلمين سـلامة الخُلق وصـدق الإخاء والجنوح إلى السلم والعفو عند المقدرة، فإنها لكذلك تحيلهم إلى أسود الشرى وعشاق الشهادة إذا مس حقهم بظلم أو تهددهم عدوان.

بهذا كله جاء محمد صلوات الله عليه رسول سلام ينادى به ويحرص عليه. ولكنه السـلام العادل، والعدل المسـالم، فإذا ما تهدده البغى هب للدفاع لا يرجوا إلا النصر أو الشهادة ويتحدى خصومه فى ساحة الحرب قائلاً قول ربه قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿ التوبة/٥٢ ﴾

هذا هو نبى الإسـلام، نبى السـلام ونبى الجهاد، رسـول الرحمة والعدل، ورسـول رد الطغيان والظلم، وفى ظل هذه العدالة وتحت لواء هذه القوة المنصـفة يشعر كل مسلم أنه عليه السلام رسم لنا سبيل الحياة وسبيل الدفاع عن حق الحياة، وأنه بدأ البناء على أساس من عقيدة صلبة وإيمان كامل، ثم أرسى فوق هذا الأساس صرح الأخلاق حتى فاز من ربه بما لم يفز به أحد وهو ما وصفه الله به من قوله وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿ القلم/٤ ﴾

وعلى هذا الأساس الصلب من عقيدة راسخة، وخلق جاد مستقيم أقام محمد صلوات الله عليه دولة الإسلام قوية بالحق فياضة بالعدل محمية بسلاح الإيمان.

إن العظمة الحقيقية والإنسانية الرحيمة فى حياة الرسول صلوات الله عليه كلاهما منبع فياض دافق دائم الجرى، لا ينضب معينه ولا يمكن لبيان - مهما سمت قدرته فى التعبير والافصاح - أن يجلو هذه الناحية، فهى اليوم - ما تزال مصدراً غنياً بأنبل الصفات، وأكرم الشمائل، وأسمى الفضائل، فلقد كان محمد ﷺ معلم الإنسانية الأول، ومربى الشعوب قاطبة، أهاب بأمة العرب وهى ذات قوة وبأس وصرامة، ودعاها لأن تخلع نفسها مما هى عليه، فانقادت له، وخضعت لسلطانه الروحى، وقد تنبه إلى هذا الجانب من حياة الرسول ﷺ بعض الأفاضل من كتاب الغرب، فاعترفوا بإنسانيته، وسمو روحه ونبله، وبطولته وعظمته، يقول "سير وليام موير" فى كتابه: سيرة محمد ﷺ: "امتاز محمد ﷺ بوضوح كلامه ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب، فلم يشهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير، كما فعل محمد ﷺ، ولا عجب فمحمد صنع أمة ملأ ذكرها التاريخ، وأحيا قوماً كانوا جفاة بداة، ليس لهم حظ من علم، فملئوا الأرض عرفاناً ونوراً، وأدهشوا الأمم العريقة فى الحضارة الراسخة القدم فى العمران، ويقول كارليل فى كتابه الأبطال: قوم يضربون فى الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم، فلما جاءهم محمد النبى العربى أصبحوا قبلة الأنظار فى العلوم والعرفان، وكثروا بعد قلة، وعزوا بعد ذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم.

أن جوانب العظمة الحقيقية تتجلى فى قلب الرسول الأعظمﷺ، فقد كان قوى العقل والفهم، صحيح القياس الفكرى، رقيق الحواس، حليما، صبورا، ذا حياء ومروءة، رحيما بالناس، عبقريا فى السياسة، ولابدع فقد نقل أمة أمية من ظلام الجهالة العمياء إلى نور العلم واليقين والهداية، عرف الجاهليون فضله قبل الإسلام فكانوا يتحاكمون فيما شجر بينهم من خلاف، وشهد وليه وعدوه بعلمه وفضله وعدله، ولا شك أن الفضل ما شهدت به الأعداء.

دخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على قريش، وكانوا يجلسون بالمسجد الحرام، وأصحابه ينتظرون ما يأمرهم به من قتل أو تعذيب لهؤلاء الأعداء الذين أخرجوه من دياره، وأمعنوا فى إيذائه، وحاولوا قتله، ولكن الرسول قال لقريش: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال صلى الله عليه وسلم سأقول ما قال أخى يوسف عليه السلام: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء..

وقد حدث الرواة الثقات أنه ما نهر خادماً فى حياته، وما ضـــرب بيده شـــيئا إلا فى الجهاد فى سبيل الله، قال أنس رضـى الله عنه: خدمت النبى ﷺ عشر سنين، فما قال لى أف قط، ولا قال لشئ صنعته: لم صنعته، ولا لشئ تركته: لم تركته، وقالت عائشه رضى الله عنها كان رسول الله إذا خلا فى بيته كان ألين الناس بساما ضحاكا.

وروى أنه كان فى سفر، فأمر أصحابه باصلاح شاة، فقال رجل يا رسول الله: علىَ ذبحها، وقال آخر على ســلخها، وقال آخر علىَ طبخها فقال رســول الله: وعلىَ جمع الحطب، فقالوا يا رسول الله نكفيك العمل، فقال: علمت أنكم تكفوننى، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وأن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه.

وقد حدث أن الرسـول حينما كان يقسم بعض الغنائم يوم خيبر أن قال رجل يا رســـول الله: أعدل فقـال محمد: ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟ فقد خبت إذا والله وخسرت إن كنت لا أعدل.

فقام عمر، فقال يا رسول الله، ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟

فقال ﷺ ، معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى.

وكـان ﷺ أســـخى من الســـحـاب المثقل بـالمطر، وأجرى بـالخير من الريح المرسلة، ما سئل عن شئ فقال: لا، ولا أعرض عن طالب.

حمل إليه مرة تسعون ألف درهم، فوضعها على حصير، ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وحدث البخارى قال: أتى بمال للرسول من البحرين، فقال: انثروه، وكان أكثر مال أتى به إليه فخرج رســـول الله إلى المســـجد، ولم يلتفت إلى المال، فلما قضـــى الصلاة، جلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه، وما قام عليه الصلاة والسلام ومعه درهم.

ذلك رســـول الله الذى حين ودع هذه الدار الفانية ترك درعه مرهونة عند يهودى على مقدار من الشـــعير لطعام أهله. وهو الذى جاءته مرة امرأة من العرب، ومعها بردة فقالت يا رسـول الله أكسـوك هذه فأخذها ﷺ محتاجا إليها، فلبســها فرآها عليه رجل، فقال يا رسـول الله: ما أحسـن هذه البردة! فاكسـينيها، فقال: نعم، ولما قام الرسول لام أصحابه هذا السائل قائلين له: إنك تعلم أن رسول الله محتاج إليها، وأنه لا يسأل عن شئ فيمنعه.

وحينما تزوج من صـــفية لم يكن يملك نفقات الوليمة لأصـــحابه، فطلب منهم إحضار طعامهم معهم، وكان طعام الوليمة التمر والشعير.

كانت حياة محمد ﷺ على هذا النحو من الزهد والتقشف والبعد عن متاع الدنيا وزينتها فى الوقت الذى كان يوزع فيه مئات الألوف من الدراهم والدنانير على أصحابه، فلم يفكر يوماً فى أن يسد حاجته، ويرفه عيشه من هذا المال الكثير.. وأن من يتأمل حياة العظماء فى العالم يجد أن كل عظيم يستمد عظمته من قومه، فإن كان هؤلاء القوم قد أخذوا بنصيب من حرية الفكر ظهر بينهم حكيم يضيئ لهم السبيل بثاقب فكره، وسديد رأيه، كما ظهر "كونفشيوس" فى الصين و "زرادشت" فى الفرس، و "غوتاما" فى الهند، وإن كان هؤلاء القوم يميلون بفطرتهم إلى الفتح وبسط الملك ظهر بينهم فاتح عظيم يقودهم إلى الاقطار كما ظهر "هانيبال" فى قرطاجة، وجنكيز خان فى التتر، ونابليون فى فرنسا، فكل عظيم هو روح عصره.. ولكن محمدا صلوات الله عليه لم يكن جاريا على هذه السُنة، فقد ظهر والعرب قد سقطوا فى هاوية الانحلال الاجتماعى والخلقى، فلم يكن من المعقول أن بيئة منحلة كهذه فشا فيها الفساد وسادها الجهل المطبق، تنتج عظيما كمحمد، ذلك الذى رفع أمة من الحضيض، وأنشأ دولة من العدم، وأقام دينا بعد انتشار الفساد والظلم والطغيان وعبادة الأصنام، هذه أمور ثلاثة صنعها محمد ﷺ ، لم تتهيأ لعظيم بعده، وتلك هى العظمة الحقيقية التى أذلت أعناق الجبابرة، وتلك الشخصية القوية التى أتت بالعجائب، وألقت فى قلوب الناس فى كل عصر الاحترام والهيبة، ولا عجب إذا عجز الفلاسفة عن أن ينشئوا جيلا مثل الذى أخرجه محمد ﷺ ، فقد كوَن صلى الله عليه وسلم جيلا يعد مثلا عاليا فى علو النفس وصفاء الطبع، ورقة الجانب، ورجاحة العقل، وطهارة الخُلق وإقامة العدل والخضوع للحق.

محمد صلى الله عليه وسلم الذى أحدث هذا التطور ينشأ فقيرا يتيما بين قومه الفقراء، ولم يكن له مؤدب يعتنى بتأديبه، أو مرب يتولى تهذيبه وتثقيفه إلا طهارة العقيدة والاعتصام بالفضيلة، وقد حدث عن نفسه فقال "أدبنى ربى فأحسن تأديبى".

لم يكن فى طاقة مخلوق أن يصل إلى هذه العظمة، إلا أن يكون مؤيدا من الله، وقد كان محمد ﷺ أطهر الخلق عند الله، منحه الله كل الفضائل، وعصمه عن الأغراض، وقرن طاعته بطاعته مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿النساء/٨٠﴾،

وسماه الله فى القرآن نورا فى قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿المائدة/١٥﴾. وقد أعلى الله ذكره، ورفع شـأنه بذكره معه فى الشـهادتين وأيده بمعجزة خالدة باقية هى القرآن الكريم، ومنع العذاب عن أهل مكة إكراماً له وتعظيماً "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم" ﴿الأنفال/٣٣﴾، وأثنى عليه الثناء العظيم، فقال تعالى، وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿القلم/٤﴾، ذلك هو سيدنا رسول الله الذى نادى بالحرية والإخاء والمساواة.

يقول "اللورد هدلى": رسـالة محمد رسـالة إلهية صـادقة لا ريب فيها هدى للمتقين، أوحى الله بها إليه، فجاءت مخففة لصـرامة أحكام التوراة، مكملة لكتاب المسـيح، كان محمد داعياً إلى الرحمة والعدل، والكرم والشـجاعة والصـبر على المكارم، والصـدق. يعتقد أن الدين هو أقرب الأشـياء إلى العقل، متحمسـاً، وكانت غيرته وتحمسه لغرض نبيل ومعنى سام".

لقد كانت رسالة محمد ﷺ مولد حضارة جديدة وضعت للناس أسسا قوية لحياة سـعيدة، وكانت مظهرا كريما لإعلاء الكرامة الإنسـانية، والسـمو بالإنسـان فى هذا الوجود.

كانت قبسـا قويا من النور أضـاء جوانب العالم المظلم فهزمت جيوش الظلم وقوضت عروش المستبدين.

وإلى دعوة رسـول الله يلجأ العالم المضـطرب يستلهم من أ صـول دعوته ما يرشده إلى إقرار مبادئ الحق والسلام، وإحلال الألفة والوئام محل التنافر والخصام.

*****

عظمة الإسلام
فى مُثله العليا

عناية الإسلام بالمُثل العليا:

لقد عنَى الإســـلام كل العناية بالناحية الخُلقية، عنَى بتهذيب النفوس، وتطهير القلوب ونشــر المُثل العليا فى الأخلاق والآداب، وقد خاطب الله رسـوله الكامل بقوله عز وجل: وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿القلم/٤﴾. وقال المصطفى صلى الله عليه وســلم: "أدبنى ربى فأحســن تهذيبى" وقال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وأنشرها فى خير أمة أخرجت للناس، وهى الأمة الإسلامية".

إن من يتتبع التاريخ الإسلامى يجد أن هذه الأمة كانت فى صدر الإسلام، أقوى أمة فى العالم كله، لأنها كانت متمسكة بالأخلاق الإسلامية، والمبادئ المثالية التى يدعو إليها الإسلام، ولكن مع الأسف حينما ابتعدت عن الإيمان الكامل، ونأت عن روح الإسلام، وما يتطلبه الإيمان والإسلام من أخلاق وآداب ووحدة انقسمت إلى دويلات، وتعرضــت للاســتعمار الأجنبى، والاحتلال الغربى، فنشــر بها الجهل والفقر والمرض، وساعد على الفساد الخُلقى، والتنازع والتفرقة، حتى يتحكم فيها، ويسيطر عليها، ويستغل ما فيها خيرات ومواد أولية.

المثل العليا التى يجب أن يتحلى بها المسلمون:

وفى القرآن الكريم والأحاديث النبوية فُصــلت المبادئ الســامية التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون، ويتمسك بها المسلمون، نذكر منها قوله تعالى:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ، وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ، أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ ﴿ الفرقان٦٣/٧٥ ﴾

الإسلام يدعو إلى الفضيلة والكمال والتسامح:

الإسلام دين سمح يشجع على الحرية فى الفكر، والحرية فى الرأى، يصلح لكل ثقافة سليمة، وحضارة مفيدة، مهما تقدم التفكير، وارتقت الحياة. دين يدعو إلى أداء الفروض الدينية، وتبادل المودة، والتعاون على البر والخير والنهضة، وينادى بحرية البحث العلمى، والتفكير فى الكون والعالم، والتمتع بما أحله الله، وتجنب ما حرمه الله.

وقد وضحت الشريعة المحمدية صلة الإنسان بربه، وصلته بأخيه المؤمن، وصلته بالإنسانية، وصلته بالعالم والحياة.

وقد أرشد الإسلام إلى الاستقامة والفضيلة والعمل الصالح، فى كل نواحى الحياة.

قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ ﴿الكهف١٠٧/١٠٨﴾

نزلاً: منزلا. لا يبغون: لا يطلبون

حولا: تحولاً إلى غيرها.

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿الأحقاف١٣/١٤﴾

أى أن الذين آمنوا بالله، ثم استقاموا على طاعته فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها، ويجزون جزاء حسنا بما كانوا يعملونه.

وقال العزيز الحكيم: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ، وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ﴿النساء ١٢٣/١٢٤﴾

الأمانى: جمع أمنية ، وهى ما يوده الإنسان

نفيرا: الموضع المنخفض فى ظهر نواة التمرة.

أى ليس ما وعد الله به من الثواب أو إدخال الجنة حاصلاً بمجرد أمانيك أيها المسلمون، أو أمانى أهل الكتاب، وإنما يحصل بالسعى والجد فى طاعة الله، والعمل الصالح. من يعمل سوءا أويرتكب معصية، مؤمنا كان أو كافرا، يجازه الله بها، عاجلاً أو آجلاً، ولا يجد له من غير الله وليا يحفظه، ولا نصيرا يمنعه منه، ومن يعمل شيئا من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فأولئك يدخلون الجنة، ولا يبخسون من ثواب أعمالهم شيئاً ما، ولو تافها حقيرا كقدر نقرة النواة.

الإسلام يدعو العالم إلى الطريق المستقيم:

إن رسالة الإسلام هداية العالم إلى الطريق المستقيم، وإخراجه من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الحق، ومن البغى والعدوان إلى العدل والسلام، ومن النقص إلى الكمال، ومن الأثرة إلى الإيثار، ومن الترف والإسراف إلى التوسط والاعتدال، ومن العقوق إلى البر، ومن الشر إلى الخير، ومن التفرق والتقاتل إلى الوحدة والتعاون، ومن الرذائل إلى الفضائل، ومن الوحشية إلى الإنسانية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن العبودية إلى الحرية، ومن نظام الطبقات إلى نظام المساواة، بين الإنسان وأخيه الإنسان، من غير نظر إلى حسب أونسب، أو جاه أو قبيلة، أو غنى أو فقر. فالناس فى الإسلام سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح. والمؤمنون إخوة.

وإن من ينظر إلى الإسلام ومبادئه وأحكامه وأخلاقه يجد أن هذا الدين الخالد صالح لكل عصر وكل مكان، فهو سهل مرن لا تعقيد فيه، منطقى يدركه ويقدره كل ذى ذوق جميل، وعقل مفكر سليم . "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"

﴿الحجر/٩﴾

الذكر: القرآن الكريم

وقد أعطى المسلمون الحرية فى التفكير والاجتهاد والتشاور فى أمورهم، من غير سيطرة أو استبداد، عملا بقوله تعالى "لست عليهم بمسيطر" وقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿الغاشية/٢٢﴾ وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه".

فأحيانا كانت تعرض مشكلاتهم على المسلمين فى المسجد، وآونة تعرض على كبار الصحابة، أو على ذوى الرأى السديد الموثوق بهم لدى الجمهور، للتشاور والتفكير فيها، واختيار الحل الذى تراه وترتضيه الأكثرية من المجتمعين من أهل الشورى، ومرجعهم كتاب الله، وسُنة رسوله، ولا هدف لهم إلا المحافظة على الشريعة الإسلامية، شريعة الله للعالم كافة.

الإسلام هذب النفوس:

ومع أن الغزاة والفاتحين من الروم والمغول والتتر وغيرهم قد اعتادوا العنف والظلم ونهب البلاد التى يفتحونها، واغتصاب ما فيها، وسفك دماء أهلها، كان المسلمون إذا فتحوا بلدا من البلاد، رحماء أمناء على النفوس والأرواح والأموال، بعيدين عن الظلم والنهب والسلب، وهذا أثر من آثار الإسلام، فقد هذب نفوسهم، وغير عاداتهم، ووضع لهم مبادئ تتمثل فيها الإنسانية الرحيمة، والأخلاق الإسلامية الكريمة، فحافظوا على هذه المبادئ، وعملوا بالمُثل العليا التى أ مر بها الله ورسوله، من العدالة والتسامح والعفو، والوفاء بالعهد، والحلم، وسعة الصدر، فضرب المثل بالمسلمين بني الأمم المختلفة، والكُتاب والمؤرخين، وبهذه المعاملة النبيلة قد نفذوا قوله عز وجل لرسولهﷺ: فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿آل عمران/٢٠﴾

أوتوا: أعطوا   تولوا: أعرضوا

فالإسلام سبيل الهداية والتهذيب والكمال، والإعراض عن الإسلام سبيل الضلال والظلم والنقص الخلقى والاجتماعى.

ومن البلاد التى كانت خاضعة للروم، وفتحها العرب فى عهد الخلفاء الراشدين مصر وسوريا وطرابلس الغرب وتونس، وعاملها المسلمون معاملة كلها إنسانية وعدالة.

تسامح المسلمين يثبته (السير توماس أرنولد)

ومن المستشرقين المعروفين بسعة الأفق، والنزاهة فى الحكم، والبعد عن التعصب (السير توماس أرنولد) الأستاذ بمعهد اللغات الشرقية بلندن، حيث قال فى كتابه "الدعوة إلى الإسلام": "حقاً إن الكنيسة المسيحية قد قويت وتقدمت فى رعاية المسلمين وحكمهم، فلم يمنعها الحكم الإسلامى عن التقدم والرقى، بل إن النسطوريين من السريانيين لم تظهر فيهم الحماسة والغيرة الدينية إلا بعد أن كانوا فى حكم المسلمين، فنشروا المسيحية تحت الراية الإسلامية، ووصلوا بدعوتهم بلاد الصين والهند تحت رعاية الخلفاء. وإذا لم يكن لغير النسطوريين من النصارى ما لهؤلاء من النشاط والحمية فى نشر دعودتهم الدينية، فليس هذا ذنب المسلمين، ولا ذنب حكامهم، فقد كان المسيحيون بمذاهبهم المختلفة يتمتعون بحسن الرعاية والتسامح من الحكام المسلمين. بل كان هؤلاء الحكام

هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعضهم،ويكفلون لهم جميعاً الحرية الدينية". فكان المسلمون يتدخلون لإقامة العدالة وإنصاف المظلومين من المسيحيين، بدون تحيز لطائفة من الطوائف المسيحية، وقد اعتنق كثير من المسيحيين الإسلام بدافع من أنفسهم، وبمحض إرادتهم، بدون إكراه أو إجبار، أو استعمال سيف، لأنهم أعجبوا بالدين المحمدى، واعتقدوا أنه دين منطقى يقبله المنطق والعقل، دين سمح سهل مرن صالح لكل زمان ومكان، وكل جيل من الأجيال.

وقد وضح (السير توماس أرنولد) فى موضع آخر من كتابه - تسامح المسلمين بقوله:

"تحت نظام من الأمن يضمن الحرية فى الحياة والملكية والعقيدة الدينية، قد تمتع المسيحيون وبخاصة فى المدن - بثروات كبيرة، ونجاح عظيم، فى العصور الأولى للإسلام، فكان منهم ذوو النفوذ الكبير فى قصور الخلفاءمن المسلمين".

ومما ذكره أن المعتصم - وهو أحد الخلفاء من العباسيين - قد اختار أخوين من المسيحيين وهما سلماوه وإبراهيم، وعينهما وزيرين من الوزراء، وتولى أحدهما بيت المال للمسلمين، أى وزارة المالية. وذات يوم مرض إبراهيم، فزاره الخليفة المعتصم فى بيته. وحزن لوفاته حزناً شديداً. وأمر بإحضار جثته إلى قصر الخلافة، حيث صُلى عليها بحسب التقاليد المسيحية، وشيعت جنازته من قصر المعتصم.

وقد ذكر (السير توماس أرنولد) أيضاً أن (نصر بن هرون) - وهو مسيحى- قد كان رئيساً لوزارة إسلامية فى عهد عضد الدولة ابن بويه، واستطاع نصر بن هرون أن يشيد كثيراً من المعابد والكنائس للمسيحيين وهذا مثل واضح لروح التسامح النبيل فى الإسلام.

وفى الشام والعراق كثير من الكنائس المسيحية التى شيدت بأمر من الخلفاء المسلمين. وفى الفسطاط بمصر القديمة لا تزال كنيسة (أبى سرجة)، وقد بنيت فى العهد الإسلامى الأول. وهذا كله أكبر دليل على العدالة المطلقة والإنصاف والتسامح فى الإسلام، وسعة صدر المسلمين، والروح الإنسانى الذى يتمثل فى معاملة المسملين لمن خالفوهم فى الدين.

وهناك مسيحيون من العرب تمسكوا بالمسيحية، ولم يسلموا، ومع هذا كانوا يحاربون ويقاتلون مع أبناء عمومتهم من العرب المسلمين، لاشتراكهم فى العروبة، وروح الأخوة السائدة بينهم فى مصر والشام والعراق فى الفتوح الإسلامية الأولى،

ومن قاتل جنباً لجنب مع المسلمين من العرب من نصارى العرب - النصارى من بنى طيى، والنصارى من بنى تغلب، والنصارى من بنى النمير، فى أثناء الحرب بين المسلمين والفرس، قبل أن يسلم أهل فارس.

ومما قاله (السير توماس أرنولد) للبرهنة على تسامح المسلمين، وحسن معاملتهم للمسيحيين: "إن بقاء الكنائس المسيحية، ومن يتبعها من الكاثوليك[1] والأرثوذكس[2] والبروتستانت[3] فى الشرق الإسلامى تلك القرون الطويلة - لأكبر برهان على تسامح البلاد الإسلامية تسامحاً تاماً".

وقد وصف القرآن الكريم النصارى فى قوله جل شأنه: **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ** ﴿المائدة/٨٢﴾ .

وقد عاهد المصطفى المسيحيين، ووفى بعهده، وضمن لهم الحرية فى عقيدتهم، والحرية فيما كانوا يملكون، وجعل القسس والرهبان فى أمن واطمئنان. وقد عاش المسلمون والمسيحيون إخوة متحابين فى الشرق، ولم ينشر روح التعصب الدينى بينهم إلا المتعصبون والمستعمرون من أوروبا لإيجاد التفرقة والتنازع والشقاق بين أبناء الأمة الواحدة، حتى يستطيعوا أن يتدخلوا فيها، ويحتلوها، ويسيطرون عليها، وينهبوا خيراتها، ويستغلوا مواردها الطبيعية.

شهادة راهب منصف للمسلمين:

وهنا نقتبس بتصرف ما رواه أحد الرهبان المسيحيين عن إسلام ثلاثة آلاف من الصليبيين فى الحرب الصليبية الثانية:

---

[1]- (الكاثوليك): كلمة إغريقية مركبة من "كاثا" ومعناها: بحسب أو طبق - وأولوس ومعناها: الجميع. فكاثوليك أى مذهب الجميع، من المسيحيين فى العصور الأولى للمسيحية، وهو كمذهب أهل السُنة فى الإسلام.

[2]- (الأرثوذكس): كلمة إغريقية مكونة من (أورثوس) بمعنى مستقيم، و(دكسا) بمعنى الرأى. فأرثوذكس معناها: الرأى المستقيم

[3]- (البروتستانت): كلمة لاتينية معناها المعترض، وسموا (بروتستانت) لأنهم يعترضون على التأويل فى نصوص الكتاب المقدس، ويرون الاستشهاد بها من غير تأويل فيها، ولا يعترفون بوجود واسطة بين العبد وربه.

"وفى طريق الصليبيين إلى المقدس، عبر جبال الأناضول، التقوا بجيش المسلمين، فهزم الصليبيون شر هزيمة، سنة ١١٤٨م. ولم يصلوا إلى مرسى "أضاليا" إلا بشق الأنفس، ومنها استطاع القادرون أن يرحلوا إلى أنطاكية بحراً، بعد أن لبوا المطالب الباهظة للتجار اليونانيين، وقد دفعوا لهم مبالغ كثيرة، وتركوا وراءهم الجرحى والمرضى والحجاج، ودفع أيضاً الملك لويس السابع خمسمائة مارك لليونانيين، على أن يعنوا بهؤلاء الضعفاء حتى يشفوا، وعلى أن يرافقهم حرس اليونانيين، حتى يلحقوا بمن سبقهم. فتربص اليونان المسيحيون حتى ابتعد جيش الصليبيين، واتصلوا بالمسلمين الأتراك، وأخبروهم بما عليه الحجاج والجرحى، ممن تخلفوا لوهنهم وعجزهم، ثم قعد اليونانيون ينظرون إلى إخوانهم فى الدين، وقد نال منهم البؤس والمرض وسهام الأتراك. فحصرهم المسلمون، ولم يكن لدى الصليبيين أقل رجاء فى النجاة، ولن ينقذوا إلا بما نزل فى قلوب المسلمين من الرحمة، حين رأوا ما فيه عدوهم من البؤس والشقاء، وما أصابهم من الضراء. فرقت لهم قلوب المسلمين، وذابت نفوسهم رحمة بأعدائهم الصليبيين المساكين، فواسوا المرضى، وأحسنوا إلى الفقراء، وأطعموا المساكين من المسيحيين بكرم وسخاء، وقد بلغ من إحسان المسلمين أن بعضهم قد استرد بالشراء أو الحيلة أو الإجبار - النقود الفرنسية التى أخذها اليونانيون من الحجاج المسيحيين، وردوها إليهم، ووزعوها على المحتاجين من الصليبيين.

وقد كان الفرق كبيراً بين معاملة المسلمين للحجاج المسيحيين، ومعاملة اليونانيين الذين سخروا إخوانهم فى الدين، وضربوهم، ونهبوا أموالهم. كان الفرق عظيماً لدرجة أثرت فى الصليبيين، حتى اعتنقوا دين أعدائهم المنقذين لهم، من غير إكراه أو إجبار. لقد فروا من إخوانهم فى الدين، لأنهم أساءوا إليهم، ولحق ثلاثة آلاف منهم بالجيش الإسلامى، ودخلوا فى دينه. لقد كانت الرحمة أشد قسوة من الخيانة! لقد أطعمهم المسلمون. واحسرتاه! لقد ارتد الصليبيون عن المسيحية، من غير أن يجبر واحد منهم على ترك دينه".

ذلك ما قاله الراهب المنصف من تلقاء نفسه.

إسلام بعض الصليبيين بمحض إرادتهم:

ونذكر هنا ما قاله (السير توماس أرنولد) المتسشرق الإنجليزى بتصرف قليل: "لقد زاد اختلاط النصارى للصليبيين بالمسلمين على ممر الأيام، وزاد معه احترام الصليبيين لهم، وتقديرهم لمزاياهم وفضائلهم، واقتدى أمراء الصليبيين بالمسلمين فى تسامحهم الدينى

واجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً كبيراً، حتى فى القرن الثانى عشـــر الميلادى. وقد أعجبوا كل الإعجاب بشـــجاعة صـــلاح الدين الأيوبى وأخلاقه، فترك كثير من الأمراء والعامة دينهم وأهلهم، واعتنقوا الإسلام، وانضموا إلى صــفوف المسـلمين، من غير أن يكرههم أحد على اعتناق الدين الإســلامى، فقد جاء الصليبيون للقضاء على الإسلام، ولكنهم أسلموا مختارين لا مكرهين.

وفى ذلك قال (السير تومس أرنولد): "لقد اطمأنوا إلى الحكم الإسلامى، فأسلموا راضيين مستبشرين. واستمر الحكام من المسلمين على عادتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى".

هذا ما قاله (السير توماس أرنولد) عن الإسلام والمسلمين، وهو مستشرق بعيد النظر، واسع الأفق، يقول الحق، ويتمسك بالصدق، لا يعرف التعصب، والتعصب لا يعرفه.

التسامح فى الإسلام يقرره "ألان بيرنز":

لقد قال "ألان بيرنز" فى كتابه: "التفرقة بين الأجناس والألوان": "إن من المقرر أن الإســـلام كان أكثر تســـامحاً من الدين المســـيحى فى الفخر والمباهاة بالأصـــل والعنصر والتعصب للفكرة القومية، وهو لا يبالى بألوان البشرة والطوائف، ويحطم الحواجز التى تقام بين الناس والإســـلام أو أى دين آخر غير الإســـلام، وبين الرجال والنساء من أصول مختلفة. وشوهد أن الغزاة العرب تزوجوا بمحض إرادة الطرفين نســاء من بلاد وأصــول غير عربية، كما زوجوا بناتهم المسـلمين من السـود، وهذه حقيقة بعيدة المدى".

الإسلام ينادى بالعفو:

قال الله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿الأعراف/١٩٩﴾

أى تســـاهل مع الخلق، واقبل الأعذار المقبولـة، وأمر بـالمعروف. وقد قـال الرسولﷺ لما نزلت هذه الآية:

ما هذا يا جبريل؟

قال جبريل: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتصـــل من قطعك، وتعطى من حرمك.

وقال عز وجل: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿الحجر/٨٥﴾

والصفح: الإعراض عن الذنب، وترك المذنب لله.

الإسلام دين الإنسانية والرحمة والاستعمار يحارب الإنسانية:

لقد عرف الإسلام بالرحمة، وتمسك بها فى معاملاته، لأصدقائه وأعدائه. ودافع عن الضعفاء والفقراء والأرقاء، رحمة بهم، وعطفا عليهم، ونصر المظلومين، وأنصف المضطهدين، وحمى المستجيرين من المشركين، عملا بقول الرءوف الرحيم فى كتابه الكريم: وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿التوبة/٦﴾

(استجارك): طلب منك الأمان من القتل

(فأجره) أمّنه.

(كلام الله): القرآن

(مأمنه): هو المكان الذى يأمن فيه بين أهله وقومه لينظر فى أمره.

والمعنى: وإن طلب منك أحد من الكفار أن تؤمنه من القتل، فأمّنه على نفسه، حتى يسمع القرآن، ثم خذه واذهب معه إلى موضع أمنه، وهو دار قومه - إن لم يؤمن - لينظر فى أمره.

وفى القرن الحادى والعشرين، وعصر المدنية والحضارة، نرى من يقتلون المدنيين، والأطفال والنساء والشيوخ والعجزة بالقنابل، والمدافع، والغازات فى حروب كلها اعتداء على الحرية وظلم للإنسانية، كالحرب فى فيتنام وفى فلسطين والعراق.

ونرى المستعمرين يقتلون الوطنيين ويطردونهم من بلادهم، ويعذبونهم، ويسجنونهم، لا لسبب إلا أنهم ينادون بحرية بلادهم واستقلالها، فهل هذه هى الرحمة التى تنادى بها المدنية والإنسانية؟

إن الإسلام قد حرم - فى الحرب وغيرها - قتل الأطفال والنساء والعجزة والشيوخ، كما حرم قتل النساء والمتعبدين الذين يعبدون الله فى معابدهم، وطلبة العلم الذين يدرسون فى معاهدهم، والمدنيين الذين يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعة ولا يحاربون.

إن الإسلام قد حرم هدم المساكن والبيوت، وإحراق المزارع، وقتل العزل بالقنابل والقذافات، وقتل المواشى فى أثناء الحرب، فكان المثل الأسمى للرحمة والعظمة.

وهذا ما سنتناوله بالتفصيل فى هذا الكتاب.

*****

عظمة الإسلام فى دعوته إلى السلم والمناداة بالسلام

عظمة الإسلام فى دعوته إلى السلم والمناداة بالسلام

الإسلام لم ينتشر بالحرب وإنما بالحُجة والاقناع:

إن الإسلام لم ينتشر بالسيف والحرب والقوة كما ادعى بعض أعدائه، ولكنه انتشر بالحُجة، والمنطق، وقوة البرهان والدليل، والإقناع الهادئ، والحكمة والموعظة الحسنة، انتشر لأنه يصلح لكل زمان وعصر، وجيل، وكل مكان فى الشرق أو الغرب، ولا يفرق بين إنسان وإنسان، للاختلاف فى اللون، أو الجنس، أو الثقافة، أو اللغة، أو الغنى والفقر.

ولو أراد الله إسلام الناس جميعاً فى العالم كله لجعلهم كلهم مسلمين، ولجعل الشعوب جميعها أمة واحدة.

قال العليم القدير: وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

﴿ هود/١١٨ ﴾ .

وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ

﴿ يونس/٩٩ ﴾

وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿ الشورى/٨ ﴾

أى ولو شاء الله لجعلهم على الدين الحق وهو الإسلام، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته وهم الذين اتبعوا الإسلام، والظالمون لأنفسهم بمعاندتهم له ما لهم من ولى ولا نصير يدفع عنهم العذاب.

وقد نهى رسول السلام ﷺ عن تمنى محاربة الأعداء، وأمر المسلمين أن يسألوا الله الصحة والسلام فى قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية" سلوا: اسألوا.

انظر إلى قوله جل شأنه: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿ البقرة/٢٠٨ ﴾ .

(مبين): بيِّن العداوة

فالله يأمر المؤمنين بالعمل بجميع أحكام الإسلام وشرائعه، وينهى عن اتباع طرائق الشيطان التى يزين بها المعاصى لهم، لأن الشيطان عدو بين العداوة.

وقوله عز من قائل: "إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴿النساء/٩٠﴾

وقد خاطب الله المصطفى ﷺ بقوله: فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿آل عمران/٢٠﴾

أى قل لليهود والنصارى والمشركين من العرب وغيرهم: أسلموا، فإن أسلموا فقد اهتدوا من الضلال، وإن أعرضوا عن الإسلام فإنما عليك تبليغ الرسالة.

وتدل هذه الآية دلالة صريحة على بعثته صلى الله عليه وسلم للخلق كافة، والعالم أجمع.

وقال جل شأنه: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿النور/٥٤﴾

وقال تعالى: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿المائدة/٤٨﴾

أى أن : لكل أمة من الأمم الحاضـــرة والغابرة وضـــعنا شـــريعة ومنهاجاً خاصـين بها، ولو شــاء الله أن يجعل الأمم جميعها تدين بدين واحد، وملة واحدة فى جميع العصــور لفعل، ولكنه تعالى يعلم ما يناســب كل أمة، فأنزل شــرائع شـــتى، ليختبركم وينظر المطيع منكم والعاصـــى، واقتضـــت حكمته أن يختم الشرائع بالإسلام، فإنزل القرآن، فسارعوا إلى الشريعة الإسلامية، وسيجزى الله كلاً منكم بعمله.

وقال عز وجل مخاطباً رسول السلام: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿الشورى/١٥﴾ .

أى فلأجل هذا التفرق والتشعب فادع يا محمد الناس إلى التوحيد، واستقم أى إلزم الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف. ولا تتبع أهواءهم فى تركه. وقل آمنت بما أنزل الله من القرآن، وأمرت لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا احتجاج ولا خصـــومة بيننا وبينكم، لأن الحق قد ظهر، الله يجمع بيينا فى يوم المعاد لفصل القضاء، وإليه المصير والمرجع.

فالإسلام دين تسامح وعدالة، لا يبيح عداء من خالف المسلمين فى الدين، ولا يبيح قتال غير المسلمين بسبب الاختلاف فى الدين، وقد استمر أبو طالب عم الرسول ﷺ مشركاً حتى مات، وحمى المصطفى من أذى المشركين. وكثيراً ما حاول الصلح بين الرسول وأعدائه.

ثم استمع إلى ما أنشده محمد رسول السلام، وهو يشترك فى حفر الخندق مع المسلمين فى أثناء الحرب:

اللهم لولا أنت ما اهتدينـــا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينــــــة علينـــا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى هـــم بغوا علينـــا	إذا أرادوا فتنة أبينـــا

فالمصطفى ﷺ قد أبدى هنا روحه النبيل، روح السلام والصلاح، والبعد عن الظلم الذى يرتكبه الأعداء، روح الدفاع عن حرية العقيدة، وحرية الدين الذى آمن به بقلبه ولسانه، وأرادت الأحزاب أن تفتنه وتبعده عنه.

ومما يدل على أن الإســلام لم ينتشــر بـالســيوف والحراب، أن الأتراك السجوقيين والمغول قد أسلموا برغبتهم واختيارهم، ومن تلقاء أنفسهم، ودخلوا فى دين الله أفواجاً، لأنه دين الفطرة السليمة، فى وقت كان المسلمون فيه ضعفاء مهزومين، وكان هؤلاء أقوياء منتصــرين فى القرن الثالث عشــر الميلادى، فالإســلام بما أوتى من قوة روحية، وقوة منطقية، ومبادئ مثالية من عند الله، تصلح لكل زمان ومكان، وكل شعب من الشعوب - قد انتشر، وسينتشر، حتى يعم كل بلد من بلاد العالم.

وفى العالم اليوم أكثر من مليار من المسلمين، اعتنق أكثرهم الإسلام بدافع من نفوســهم وقلوبهم، بدون إكراه أو أجبار، أو حرب أو قتال، لأنه دين الحق، دين الله، دين الواحد الأحد، دين رب السموات والأرض، دين الأخوة والمحبة، دين البر والإنســانية، دين بعيد عن التعصــب والتفرقة بين الإنســان وأخيه الإنسان، دين يعطى الصدقة والتبرع للفقراء والمساكين، سواء أكانوا من أتباع محمد أم كانوا من أتباع موسى وعيسى، من غير تمييز.

وقد حدث فى خلافة عمر بن عبد العزيز أن الوالى فى مصــر شــكا إليه أن الأقباط فيها يعتنقون الإسلام ويتركون المسيحية، وأن ذلك يؤدى إلى نقص فيما يجبى منهم من الجزية، واستأذنه فى منعهم من اعتناق الإسلام. فأجابه عمر بن عبد العزيز بقوله: "قبح الله رأيك، ما بعث الله محمداً جابياً، ولكن بعثه هادياً".

فمحمد ﷺ لم يرسل ليجمع الجزية من المعاهدين غير المسلمين، ولكنه أرسل ليهدى العالم والناس كافة إلى الطريق المســتقيم، إلى الفضــيلة والكمال، إلى الحرية والمســاواة والتفكير فى الإنســانية، إلى أخذ الحق وإعطاء الحق، إلى الأمانة والوفاء والصــدق، إلى العدالة والإنصــاف، والإحســان إلى الفقير، والعطف على السائل والمحروم، وابن السبيل، إلى الوقوف بجانب المظلومين، لنصرتهم والدفاع عنهم، إلى العمل الصالح، وتقوى الله فى السر والعلانية، هذه هى عظمة الرسالة المحمدية، والأخوة الإنسانية، والشريعة الإسلامية.

ولهذا أيد الله الرسول بالنصر وانتشار الإسلام بسرعة بعد الهجرة، قال عز وجل: وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿الأنفال/٦٢﴾ .

نزلت هذه الآية فى بنى قريظة. أى وإن أرادوا أن يخدعوك بإظهار ميلهم إلى السلم لتكف عنهم أو ليستعدوا، فصالحهم ولا تخش منهم، فإن الله كافيك بنصره ومعونته، وقد أيدك الله بنصره، واتبعوا أمرك وأطاعوك.

الإسلام أباح الحرب للدفاع:

لقد أجاز الإسلام الحرب للدفاع عن النفس، والدفاع عن الوطن، والدفاع عن حرية العقيدة، والدفاع عن الظلم، ونصرة المظلوم، وجعل الغرض الأسمى من الحرب هو الوصول إلى السلم.

قال تعالى: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿البقرة/١٩٣﴾

أى وقاتلوهم قاصدين إزالة الفتنة، وإعلاء الإسلام، حتى يضمحل الشرك، ويكون الدين خالصاً لله.

وللمحافظة على السلام، ومنع القتال والحرب أمر بالاستعداد لرد الاعتداء والعدوان.

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿الأنفال/٦٠﴾

إن الإسلام يدعوا إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، حتى يعيش العالم فى أمن واستقرار وسلام، انظر إلى قول العزيز الحكيم: وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿آل عمران/١٠٤﴾

ثم انظر إلى عصبة الأمم الإسلامية التى نادى بها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً فى قوله تعالى: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿الحجرات/٩﴾ .

لقد ادعى المتعصبون من أعداء الإسلام أنه انتشر بحد السيف، ولو جردوا أنفسهم من بعض التعصب، وقرأوا التاريخ لعرفوا عن يقين أنه انتشر لأنه دين يقبله العقل السليم، والمنطق المبنى على الإقناع والدليل، دين الفطرة السليمة، والإنسانية والمساواة والحرية، دين الأخوة والعدالة الاجتماعية، دين الوحدانية حيث يدعو إلى عبادة الحق الواحد الأحد، رب العالمين، الرحمن الرحيم، دين الرحمة والعفو والمغفرة، دين التسامح واليسر، لا التعسف والعسر، دين يستطيع فيه الإنسان أن يتجه إلى الله بالعبادة فى أى مكان: وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة/١١٥﴾، إنه دين لا يتقيد بالعبادة فى معبد خاص أو مكان معين، دين العلم والنور، لا الجهالة والظلمة، دين يتساوى فيه الغنى والفقير، والرفيع والوضيع أمام الله.

لقد بعث رسول الله الهدى والنور إلى العالم كافة، ونفذ رسالة ربه بكل صدق وأمانة وإخلاص، وقد لقى فى سبيل هذه الرسالة الإلهية ما لقى من تعذيب واضطهاد وآلام.

وقد أجابه إلى دعوته قليلون فى البدء بعد اقتناعهم بأنه الصادق الأمين، الطاهر المؤمن بما يدعو إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان والأصنام، المؤمن برسالته إلى الناس جميعاً، ليأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم إلى إقامة الصلاة، وإعطاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله.

دعاهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم وناقشهم بالعقل والمنطق والحسنى، حتى أقنعهم الإقناع كله بصدق رسالته، عملاً بقول الحق جل شأنه: ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿النحل/١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴿النحل/١٢٦﴾

(توماس كارليل) ينصف الرسول المصطفى ﷺ:

وقد أنصف (توماس كارليل) الفيلسوف الإنجليزى محمداً ﷺ ، وكتب عنه فى كتابه "الأبطال وعبادة البطولة"، وعده بطلاً وإنساناً لا مثيل له فى الكمال والإخلاص، لأنه كاتب غير متعصب، وقال: ما معناه "إن من السخف الذى لا يفهم أن يتهم محمد بأنه اعتمد على السيف فى نشر دعوته، وكيف يعقل أن يشهر رجل وحيد سيفه ليقتل به الناس حتى يستجيبوا لما يدعو إليه، فإذا آمن به من يستطيعون محاربة خصومهم فقد آمنوا به طائعين مختارين، مصدقين محمداً، وقد تعرضوا للتعذيب والإيذاء والحرب من أعدائهم، قبل أن يقدروا على الحرب".

والحق أن كفار قريش قد آذوا الرسول ﷺ بكل أنواع الإيذاء، وعذبوا من آمنوا به فى بدء الإسلام بكل وسائل التعذيب، فنصح لهم الرسول الأمين بالهجرة إلى الحبشة، فاضطروا إلى ترك وطنهم وأهلهم ومصالحهم بمكة المكرمة، وهاجروا، فأرسل المشركون رجالاً إلى النجاشى بالحبشة، ومعهم بعض الهدايا، وطلبوا منه طردهم، حتى يعودوا إلى مكة. فرفض النجاشى الهدايا، وأبقى المهاجرين لديه، وعاملهم معاملة حسنة، وعاد الكفار بخفى حنين، بعد أن سمع النجاشى ما سمع من المسلمين والمشركين، ووقف بجانب المهاجرين المضطهدين أتباع المصطفى ﷺ، ولهذا لم يحارب المسلمون الحبشة.

ولم يلجأ المؤمنون إلى القوة إلا للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم، وإخوانهم المعذبين، ضد الأقوياء المعتدين الظالمين، من المحاربين المهاجمين، من العرب أو الفرس أو الروم.

وقد حاول المشركون بكل الوسائل أن يتخلصوا من محمد ﷺ ويقتلوه، ولكن محمداً رسول الرحمة كان فى رعاية الله وحراسته، فحفظه من مؤامرتهم وهو أرحم الراحمين.

ولم يقدم الرسول ﷺ على الحرب إلا وهو مضطر، فمثلاً فى محاربة كسرى ملك الفرس، قد كتب إليه المصطفى ﷺ يدعوه إلى الإسلام.

قد بعث صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى أبرويز ملك الفرس، سنة ست من الهجرة، وبعث معه كتاباً فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى ملك الفرس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية[٤] الله عز وجل، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس[٥]".

فمزق كسرى الكتاب، وكتب إلى عامله الملك بازان - وهو أمير لكسرى باليمن - وقال له:

"بلغنى أن رجلاً من قريش خرج بمكة، يزعم أنه نبى! فسر إليه، فاستتبه[٦] فإن تاب وإلا فابعث إلىّ برأسه أيكتب إلىّ هذا الكتاب وهو عبدى؟".

فأرسل الملك بازان رسالة كسرى ملك الفرس إلى الرسول ﷺ ، مع اثنين من الفرسان، وأمر الرسول أن يذهب معهما إلى كسرى، فذهب الفارسان إلى النبى، وقالا له:

"شاهنشاه[٧] بعث إلى الملك بازان يأمره أن يبعث إليك من يأتى بك، وقد بعثنا إليك. فإن أبيت هلكت، وأهلكت قومك، وخربت بلادك".

فهل يلام الرسول والمسلمون إذا حاربوا الفرس بعد هذا التحدى والتهديد بقتل محمدﷺ ، وقطع رأسه، وإرساله إلى كسرى، وإهلاك قومه، وتخريب بلاده؟

فالإسلام يدعو إلى السلام، والمصطفى رسول السلام، ولم يشهر المسلمون سيفاً إلا مضطرين للدفاع عن النفس والمحافظة على الحياة، والدفاع عن حرية العقيدة، والحرية الإنسانية.

إن الإسلام لم ينتشر بالسيف - كما يدعى المتعصبون - ولكنه انتشر بالحجة الواضحة، والبينة الظاهرة، والإقناع بالعقل والمنطق والتفكير السليم، والرأى السديد، والمثل العليا، والمبادئ المثالية، فى العبادات والمعاملات.

---

[٤] - هى الإسلام

[٥] - أى إثم أتباعك ورعاياك من المجوس

[٦] - اطلب منه التوبة

[٧]- ملك الملوك

انظر إلى عدد المسلمين اليوم فى الهند وباكستان والصين وأندونيسيا والسودان ونيجيريا، وتونس والجزائر والمغرب وليبيا تجد أنهم نصف المسلمين فى الأمة الإسلامية تقريباً. وقد أسلموا جميعاً لاقتناعهم بأن الإسلام هو دين الفطر السليمة، والعقل المنطقى، والأسوة الحسنة، والخلق الكامل، والعدالة الاجتماعية، دين الحرية والإخاء والمساواة، دين مثالى صالح لكل زمان ومكان. دين الحق والهدى والنور، دين الإنسانية والرحمة، والتعاون والتسامح، دين الصدق والأمانة، والوفاء والإخلاص، دين الإحسان والإيثار، والنبل والمروءة، دين الطهارة والعفة، دين المودة والصداقة والأخوة، دين العلم والحضارة والمدنية، دين الابتكار والاختراع والمستقبل، دين الأخلاق والآداب، دين الحق، دين رب العالمين، دين رب السموات والأرض، دين المستقبل.

إن الإسلام يدعو إلى السلام، إلا إذا اضطر المسلمون إلى حرب لا مفر منها، دفاعاً عن النفس، والوطن الإسلامى، إذا هاجمهم الأعداء من الكفار، فالدفاع الآن يعد واجباً، بالقدر الذى يسمح لهم بأن يدفعوا الأذى عن أنفسهم ووطنهم، والإسلام ينصح بتأخير الحرب وتأجيلها إذا وجدت وسيلة لتأخيرها وتأجيلها، والوصول إلى السلم.

قال تعالى: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴿النساء/٨٤﴾.

فالرسول هنا أمر بالقتال للدفاع عن الإسلام، وحث المؤمنين وإعدادهم للدفاع، والتسلح بالصبر والمسالمة، عسى أن يكف بأس الكافرين الذين هاجموه واعتدوا عليه وعلى من معه من المسلمين.

ومن الآيات القرآنية التى وردت فى القتال والسلم قوله تعالى: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴿البقرة/١٩٠﴾

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿الأنفال/٦١﴾

إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴿النساء/٩٠﴾

وفى شـأن الكفار الذين لم يقاتلوا المسـلمين، ولم يمنعهم من دينهم، ولم يلحقوا بهم أذى، ولم يخرجوهم من ديارهم - لم ينه الله عن صـلتهم والإحسـان إليهم قولا وفعلاً، ومعاملتهم بالعدل، والوفاء لهم، ولكنه نهى عن المشـركين الذين قاتلوهم بسـبب اعتناقهم دين الإسلام، وأخرجوهم من ديارهم، وتعاونوا على إخراجهم - أن يتخذوهم أولياء، ومن يتولهم ويتخذهم أولياء، (ويفعل ذلك) فأولئك هم الظالمون.

قال تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿المتحنة/٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المتحنة/٩﴾

الإسلام يمنع الإكراه فى الدين:

وقد ورد فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية كثير من الآيات والأحاديث التى تنهى عن إكراه أحد على اعتناق الإسلام، فمن أسلم فى صدر الإسلام أسلم بعد الاقتناع والإيمان، ولا شك أن الإسلام قد أسس على المنطق والحجة، والبرهان والإقناع، لا على الإجبار والإكراه قال العزيز الحكيم: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة/٢٥٦﴾

أى لا إكراه فى الدين ولا إجبار، فقد تبين الرشد من الغى، أى قد تبين طريق الحق من طريق الضلال والفساد.

وقال عز وجل فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ، إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ، إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿الغاشية ٢١/٢٦﴾

وقال عز وجل: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا ﴿الكهف/٢٩﴾

أى قل يا محمد إن هذا القرآن الحق من عند الله ربكم، فمن أراد أن يؤمن بما فيه من أحكام وشرائع فليؤمن، ومن أراد أن يكفر به فليكفر فللإنسان الحرية المطلقة فى الإيمان أو الكفر، وقد منحه الله عقلاً يفكر به، فليختر لنفسه ما يحلو له.

وقال عز وجل: وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿ يونس/٩٩ ﴾

وقال تعالى: وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ النحل/٩٣ ﴾

وقال عز من قائل: أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ، لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ ﴿ الرعد ٣٣/٣٤ ﴾

وقال تعالى: إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿ الإسراء/٧ ﴾

وقال عز من قائل: مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿ الإسراء/١٥ ﴾

وقال تقدست صفاته: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿ ق/٤٥ ﴾

وإن من يطلع على عهد الحديبية، وهو العهد الذى اتفق فيه الرسول ﷺ - بعد ست سنوات من هجرته من مكة - مع الكفار منها يجد أن الرسول كان مثلاً سامياً للحكمة وبعد النظر، والوفاء بالعهد، والإيمان بالدعوة، لا يكره أحداً على الدخول فى دين الله، دين الإسلام.

ومن يطلع على عهد بيت المقدس، وهو العهد الذى وضـــعه عمر بن الخطاب - العظيم العادل مؤسـس الدولة الإسـلامية - لأهل إيلياء يجد أنه أعطاهم أماناً لأنفســهم وأموالهم وكنائسـهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار على أحد منهم.

ومن خرج منهم فهو آمن على نفسـه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسـير بنفســه وماله مع الروم ويخلى بينه وبين صلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

فالإســـلام كان مثلاً للرحمة، والوفاء بالعهد، وحُســـن المعاملة، لم يكره أحداً على اعتناقه، بل ترك لكل إنســـان الحرية فى العقيدة، والحرية فى اختيار الدين الذى يثق به، فهل بعد هذا يقال إن الإسلام انتشر بالسيف؟

لماذا انتشر الإسلام بسرعة؟

لقد انتشـر الإسـلام بسـرعة فى أقل من قرن بين الصـين من الشـرق، والمحيط الأطلسى من الغرب، لأنه دين الفطرة، والطبيعة الإنسانية، دين المستقبل، دين سهل يقبله العقل والمنطق، ويتصـل بقلوب الناس ومشـاعرهم ومصـالحهم، يدعو إلى الطمأنينة والسلام، فينفذ إلى العقول، ويصل إلى الأفئدة. يدعو إلى التمسك بالفضائل، والبعد عن الرذائل، ويأمر بالخير، وينهى عن الشر.

انتشـر الإسـلام بسـرعة لأنه دين يحق الحق، ويبطل الباطل، ويصـلح لكل زمان ومكان، ويناسـب كل بيئة وإنسـان، يحدد الحقوق، ويسـوى بين جميع الطبقات، فى احترام النفس والدين، والعرض والمال.

انتشـر الإسـلام بسـرعة لأنه دين اليسـر والتسـامح، دين الإيثار والإنسـانية، دين الإخاء والحرية، دين المسـاواة بين الفقراء والأغنياء، دين العطف والشفقة والرحمة، دين العدالة المطلقة، دين يسـهل فهمه، ويطمئن إليه كل إنسـان، ويدعو إلى الدنيا والآخرة.

ويرجع انتشار الإسلام بسرعة إلى ما اتصف به الرسول الكريم ﷺ من إيمان بما يدعو إليه، وثقة تامة بتأييد الله، واجتهاد فى نشـر دعوته، وثبات عظيم، وصـبر لا نهاية له على ما كان يلاقيه من أذى أقرب الناس إليه، وهم أهله وعشـيرته، الذين تحدوه وعادوه وعاندوه، وحرضـوا القوم عليه، لكنه قام بالدعوة إلى الإسـلام وحده صـابراً، وقومه ما بين مسـتهزئ به، وغافل عنه، ومسـتعد عليه. واسـتمر يقارعهم بالحُجة، ويناهضـهم بالدليل، ويأخذهم بالنصـيحة، ويسـكتهم بالمنطق، ويزعجهم بالزجر، وأخيراً سـفه أحلامهم وعقولهم، وضـلل آباءهم، وسـخر من آلهتهم وأوثانهم وأصنامهم، وأنذرهم عذاباً أليماً.

وثابر على ذلك صباح مساء، حتى أخذتهم العزة بالإثم، وأجمعوا أمرهم بينهم على قتله، ليسـتريحوا منه، لولا ما كان من حماية عمه أبى طالب. وقد اسـتمر فى الدعوة إلى الحق حتى انتصر عليهم جميعاً بالحجج القوية، والإيمان الراسخ، والخلق الكامل، والأمانة المطلقة، والإخلاص النادر، والصبر الجميل.

بهذه الأخلاق العظيمة نجح محمد ﷺ فى نشر دين الله، وإعلان أحكامه، ووحد بين العرب، بعد أن كانوا شـيعاً وأحزاباً وتحققت الوحدة الدينية، واجتمعت الكلمة الإسـلامية فى جزيرة العرب، وانتشـرت الوحدة الدينية بين العرب، بطريقة لم يعهد لها نظير فى ماضيهم.

وأصـبح العرب فى زمن قصـير أمة تدين بالتوحيد، وصـارت الأمة العربية دولة الزمان، ذات الأساس المتين.

وبانتشـــار الإســـلام تغيرت عقائد وعادات وتقاليد.. وشـــرع الإســـلام للناس قوانين وأحكاماً تتفق مع العقل المنظم، والمنطق السليم، وجاء بِحكَم وآداب خشعت لها قلوب المفكرين، ودهشـــت منها عقولهم، وانصـــرفت وراءها هممهم. وحث على التعليم والإرشــاد، وقرر قواعد العدالة والإنصــاف، والحرية الدينية، والمســاواة بين الفقراء والأغنياء، والبيض والسود والصفر.

كل هذا أورق وأينع، وأزهر وأثمر فى ربع قرن، ثم كان له فى الأمة الإســـلامية وحياتها المجيدة شأن عظيم.

فرسول الله ﷺ أنشأ أمة عظيمة، متآلفة متعاونة، من قبائل عربية كانت متباغضة متطاحنة، وأعد الأمة الإسلامية إعداداً كاملاً، لتتبوأ مكانها بين الأمم المجيدة. فكان له منها دولة إســلامية عظيمة قوية خضـــعت لها من بعده وجوه القياصـــرة والأكاســـرة. وصار أبناؤها يرون بحق أنهم أهل لأن يسودوا العالم، ويقودوا الأمم، وينشروا العدل والســلام على الأرض، وصـــارت فى أقل من قرن تخفق راياتها على البلاد المتمدنة، الممتدة من جدار الصـــين شـــرقاً إلى المحيط الأطلســـى غرباً. ولم تبلغ دولة من دول العالم ما بلغته الدولة الإســـلامية فى انتصـــاراتها، وفتوحاتها، مع قلة المســـلمين فى البدء، وقلة استعدادهم، وكثرة الأعداء، وقوة أسلحتهم.

وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْـــرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْـــرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿آل عمران/١٢٦﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿محمد/٧﴾

أنشــأ محمد دين التوحيد، فاكتســح إفريقيا من القاهرة إلى مراكش وجنوب أوروبا، واكتسـح نصـف آسـيا من القدس الشـريف إلى بغداد، إلى طهران، إلى الهند، ووصـل إلى قرطبة وغرناطة، وانتصـــر الحق على الباطل، وانتشـــر نور الإســـلام على ظلام الكفر والوثنية.

ولا عجـب، فهو دين يـدعو إلى توحيـد الله، وينبـذ الأوثـان، ويـدعو إلى الأخلاق الكريمة، والصفات النبيلة، والآداب الكاملة، والتمسك بالفضيلة، واجتناب الرذيلة.

دين زيَّن أسبانيا ومصـر والقسطنطينية وفلسطين والهند بعمارته الرشيقة الجميلة، من قصـر الحمراء إلى التاج محل.

ولو اتبع المسـلمون دينهم، واسـتمسـكوا بأصـوله وقواعده لظلت راياتهم تخفق إلى اليوم على ملكهم الواسع الأطراف.

وما دام الله تعالى قد تكفل بحفظ كتابه المجيد، ومادام الله يأبى إلا أن يتم نوره، ويظهر دينه على الدين كله، فإن أهل القرآن الكريم بعد انصرافهم عن كتابهم ودينهم، سيقبلون على القرآن، وعلى الإسلام، فيقبل عليهم الزمان، وتعود الدولة إليهم، وعد الله لا يخلف الله وعده.

الإسلام انتشر بمبادئه الإنسانية لا بقوة السيف:

وإننا نرى أن الإسلام قد انتشر بمبادئه المثالية فى إفريقيا وآسيا وأوروبا، انتشر بمبادئه السامية لا بقوة السيف، انتشر بآرائه المنطقية التى تتفق مع العقل والمنطق، وكل زمان ومكان، وتتفق مع الحضارة والمدنية. انتشر بمبادئه التى تلائم الطباع والنفوس البشرية، وتتفق مع الإنسانية، فقد قضى على الرذائل وأبطل عبادة الأصنام، وحرم أكل لحوم الإنسان، ونشر بين العالم كله العزة والإيثار، والكرم والإحسان، والعفو عن المقدرة، والصدقة على الفقراء والمساكين.

وبهذه المبادئ الإنسانية انتشر الإسلام، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، وأتم الله نعمته على الرسول الكامل ﷺ ، ونصره نصراً عزيزاً.

*****

فلسفة الحرب ومشروعية القتال
فى الإسلام

لم يؤذن للمسلمين فى القتال قبل الهجرة رغم ما ذاقوا من المر وكابدوا من فنون الأسى والضر، فلم يكن من همهم إلا أن ينشروا دعوة، ويثبتوا عقيدة، ويقولوا فى حرارة وصدق ربنا الله.. فلما اشتد عداء قريش وصمموا على القضاء على الدعوة، وأجمعوا أمرهم على قتل النبى ﷺ هاجر هو وأصحابه إلى المدينة، فهل وقف البغى، وخفت حدة العدوان؟ كلا ظلت قريش تحارب المسلمين، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم حتى أذن الله للمسلمين فى القتال فنزلت فيه أول آية أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿الحج/٣٩﴾

لقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم غازياً فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة، وبذلك بدأ القتال (فعلا) فى الإسلام.

أهداف القتال فى الإسلام

١ـ حماية حرية نشر الدعوة

ليس من أهداف الحرب فى الإسلام (نشر) الدعوة، بل (حماية حرية) نشرها، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه، والله تعالى يقول: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة/٢٥٦﴾

. ولو كان الفضل فى انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله وغلبوا على أمرهم.

ولكن هدف الحرب فى الإسلام هو حماية العقيدة وتأمين حرية انتشارها بين الناس، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴿البقرة/١٩٠﴾

إن الحرب فى الإسـلام حرب دفاعية، لا يبدأ المسـلمون فيها بالاعتداء على أحد، ولا يقـاتلون إلا مكرهين على القتـال، ويعتبرون الحرب كفـاح شـرف لا يجوز أن يلجـأ المحـاربون فيهـا إلى عمل أو إجراء يتنـافى مع الشـرف فهم مقيدون باحترام العهد، والترفع عن الخيانة، ومواسـاة الجرحى والمرضـى والأسـرى والعناية بهم، وعدم التعرض بسـوء لغير المقـاتلين والنسـاء والأطفـال والشـيوخ والرهبـان والعبيـد والفلاحين.. إلخ [٨]

٨- لقد أخذ الإسلام بمبدأ التبادل وطبقه تطبيقاً كاملاً معطياً بذلك أحسن المثل للدول الحديثة.

قال تعالى: الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿البقرة/١٩٤﴾

يقول الإمام محمد عبده فى تفسير المنار (٢٥٧/٢): "وصرح بالاعتداء على المعتدى مع مراعاة المماثلة. وقد اسـتدل الإمام الشـافعى بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل ما قتل بـه.. والقصـد أن يكون الجزاء على قد الاعتداء بلا حيف ولا ظلم، ولذلك قال تعالى بعد شـرع القصـاص والمماثلة: "واتقوا الله" فلا تعتدوا على أحد ولا تبغوا ولا تظلموا فى القصـاص بـأن تزيدوا فى الإيذاء، وأكد الأمر بـالتقوى بما بين من ميزتها وفائدتها فقال: "واعلموا أن الله مع المتقين" بالمعونة والتأييد، فإن المتقى هو صـاحب الحق وبقاؤه هو الأصلح والعاقبة له فى كل ما ينازعه به الباطل".

ويقول الدكتور عبد الفتاح حسـن فى مجلة المكتب الفنى لمجلس الدولة الصـادرة سـنة ١٩٦٠ ص ٢٧٩: "وأزيد على هذا ما هو أولى بالمقام وهو المماثلة فى قتال الأعداء، كقتل المجرمين بلا ضـعف ولا تقصـير، فالمقاتل بالمدافع والقذائف النارية أو الغازية السـامة، يجب أن يقاتل بها، وهذه الشـروط والآداب لا توجد إلا فى الإسلام.

٢ـ توطيد أركان الإسلام

تكون الأمة بغير جيش قوى عرضه للضياع، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها، فإذا كان لها جيش قوى احترم العدو إرادتها، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها، فيسود عند ذلك السلام: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ، وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿الأنفال ٦٠/٦١﴾

" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

﴿البقرة/٢٠٨﴾

إن السلام فى الإسلام (دين)، أما عند غيرهم..؟!

إن الإسلام كما تدل عليه تسميته دين أمن وسلام، يقوم على أساس الود والتسامح، لا يجيز الحرب إلا فى حالات محدودة بحيث تعتبر فيما عداها جريمة.

*****

١ـ قتال المسلمين للمسلمين:

هذا النوع من القتال، هو شأن من الشئون الداخلية للمسلمين، فقد فرض القرآن حالة بغي وخروج على النظام العام تقع بين طوائف المسلمين بعضها مع بعض، أو بين الرعية وراعيها، فوضع لها تشريعاً من شأنه أن يحفظ على الآمة وحدتها وعلى الهيئة الحاكمة سلطانها وهيبتها، ويقى المجموع شر البغى والتعادى: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿الحجرات ٩/١٠﴾ هذه الآية تفرض حالة اختلاف يقع بين طائفتين من المؤمنين، ولا يستطاع حله بالوسائل السلمية، فتلجأ كل منهما إلى القوة، فتوجب هذه الآية على الأمة ممثلة فى حكومتها أن تنظر فيما بين الطائفتين من أسباب الشقاق، وتحاول الإصلاح بينهما، فإن وصلت إلى ذلك عن طريق المفاوضات، وأخذ كل ذى حق حقه، ورد البغى واستقر الأمن، فقد كفى الله المؤمنين شر القتال، وإن بغت إحداهما على الأخرى، واستمرت على العدوان، وأبت أن تخضع للحق وتنزل على حكم المؤمنين، كانت بذلك باغية خارجة على سلطة القانون متمردة على التشريع الإلهى والنظام، فيجب على جماعة المسلمين قتالها حتى تخضع وترجع إلى الحق.

إن القصد من هذا التشريع هو المحافظة على وحدة الأمة وعدم إفساح المجال لتفرقها، لذلك فهذه الحرب طريق (للسلم) وقضاء على البغى والعدوان[٩].

٢ـ قتال المسلمين لغير المسلمين:

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين لرد العدوان وحماية الدعوة وحرية انتشار الدين، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء، وتوخى به أن يكون طريقاً إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف.

٩ ـ الرسول القائد محمود شعيث خطاب

وليست الجزية عوضاً مالياً عن دم أو عقيدة، وإنما هى لحماية المغلوبين فى أموالهم وعقائدهم وأعراضهم، وكرامتهم وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء.. يدل على ذلك أن جميع المعاهدات ا لتى تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد، كانت تنص على هذه الحماية فى العقائد والأموال.. وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف: "إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة.. فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى تمنَعكم".
لقد ردّ خالد بن الوليد على أهل حمص وأبو عبيدة على أهل دمشق، وبقية القواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك، وكان مما قال القواد المسلمون لأهل تلك المدن: "إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم، فهذه هى أموالكم نردها إليكم".
لقد كان فرض الجزية فى الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع فى أموال المغلوبين، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب، وكانت على ثلاثة أقسام: أعلاها وهو (٤٨) درهماً فى السنة على الأغنياء.
وأوسطها (٢٤) درهماً فى السنة على المتوسطين من تجار وزراع.
وأدناها وهو (١٢) درهماً فى السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً.
وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله وهو بنسبة اثنين ونصف بالمائة القدر الشرعى لفريضة الزكاة.
إن اسقاط الجزية عن الفقير والصبى والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى وذوى العاهات أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكفلين على دفعها، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة فى تحصيلها، وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف: "إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد: القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله".

ليس ذلك فحسب، بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة فى الجيش، والذمى الذى يقبل التطوع فى الجيش الإسلامى تسقط عنه الجزية.

كما ضمن الإسلام إعالة البائسين والمحتاجين من الذميين. جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة: "وإيما شخص ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله".

إن فرض الجزية لا يحمل معنى الامتهان والإذلال، ومعنى "صاغرون" فى آية الجزية: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿التوبة/٢٩﴾

هو الخضوع، إذ من معانى الصغار فى اللغة الخضوع، ومنه أطلق "الصغير" على الطفل لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه، والمراد بالخضوع حينئذ الخضوع لسلطان الدولة، بحيث يكون فى دفع الجزية معنى الالتزام من قِبل أهل الذمة بالولاء للدولة، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم.

ولا توجد آية فى القرآ الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه.

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ الممتحنة ٨/٩ ﴾

واقرأ الآية الكريمة، وهى من أواخر القرآن نزولاً، فهى تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

﴿ المائدة/٥ ﴾

من ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هى: بر وقسط، وتعاون، ومصاهرة.
ومن ذلك يتضح أن الإسلام يدعو للقتال كضرورة لحماية حرية التوحيد:
توحيد الله وتوحيد الناس.
إن الإسلام لا يؤمن بالحروب التى تثيرها العصبية العنصرية، كما يستبعد الحروب التى تثيرها المطامع والمنافع: حروب الاستعمار والاستغلال والبحث عن الأسواق والخامات واستعباد المرافق والرجال، كما يستبعد الإسلام تلك الحروب التى يثيرها حب الأمجاد الزائفة أو حب المغانم الشخصية.

إن القتال ليس أساس العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وهذا طبيعى فى دين لا ينشره أصحابه للتوسع الاقتصادى وللاستغلال، دين يحرم العدوان ويشرع التكافؤ والمساواة بين الناس ويجعل مقياس التفاضل بينهم التقوى والعمل الصالح.

إن السلم فى الإسلام هو القاعدة الثابتة والحرب هى الاستثناء.[١٠]

---

١٠ ـ أنظر ما قال الأستاذ هاك فى كتابه: مساهمة الإسلام فى السلام العالمى، الذى نشره باللغة الإنجليزية فى لاهور عام ١٩٣٢: "إن الأمم تبذل الكثير من الجهود وتعقد المؤتمرات لمنع التسليح ومنع الحرب، أو للتقليل من فرض إعلانها، ولكن جهودها باءت بالفشل، ذلك لأن الدول إذ تتعهد، لا تقيد نفسها بالمعاهدة إلا حين تنعدم عندها الوسيلة لنقضها، حتى إذا ما توفرت عندها القوة الكافية لذلك، أعلنت أن المعاهدة التى أبرمتها، وارتبطت ببنودها حبر على ورق. ويقدم لنا التاريخ كثيراً فى الأمثلة على ذلك ولو طبقت أحكام الإسلام فيما يتعلق بالحروب والجهاد تطبيقاً كاملاً، لوجد العالم فيها جنته التى يبحث عنها بدلاً من الجحيم الذى هو مسوق إليه، ليطيع كل منا دعوة الله تعالى التى يقول فيها: وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿البقرة/٦٠﴾ .

الحرب فى الإسلام ..
حرب عادلة ومثالية

الحرب العادلة:

"هى حرب توجه ضد شعب ارتكب ظلماً نحو شعب آخر ولم يشأ رفعه. ويشترط فيها أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية وتكون لغرض تحقيق سلم دائم، ووجوب احترام حياة وأملاك الأبرياء وحسن معاملة الأسرى والرهائن".

هذا هو معنى الحرب العادلة كما تنص عليه مصادر قوانين الحرب والحياد من القانون الدولى.

الحرب العادلة إذاَ، حرب دفاعية لا عدوانية، تستهدف تحقيق سلم دائم، أغراضها إنسانية، تحترم حياة وأملاك الأبرياء، وتعامل الأسرى والرهائن بالحسنى.

إن حقيقة الحرب فى الإسلام قبل أربعة عشر قرناً أكثر مما تنص عليه مصادر القانون الدولى فى القرن الواحد والعشرين، فهى بالإضافة إلى ذلك لا تثيرها العنصريات ولا حب الأمجاد، وليست لأغراض مادية أو استعمارية، وتدافع عن حرية الرأى والعقيدة.

وسترى التطبيق العملى لكل هذه الشروط فى أعمال الرسول ﷺ العسكرية.

والحرب العادلة تعنى:

١- حرب دفاعية:

ارتكبت قريش كل الظلم والعدوان ضد المسلمين عندما كانوا فى مكة، فلم يبق هناك مجال للمسلمين غير ترك أموالهم وأهليهم والهجرة من مكة إلى الحبشة أولاً وإلى المدينة أخيراً تخلصاً من هذا الظلم والعدوان.

هاجر أكثر المسملين من مكة فراراً بعقيدتهم فقط، تاركين فيها كل ما يملكونه من أهل ومال، وكان أكثر هؤلاء المهاجرين من الذين حمتهم عصبتهم من أن يصيبهم ما أصاب المستضعفين الذين عذبتهم قريش ولقوا مصارعهم من جراء هذا التعذيب.

حتى الرسول ﷺ نفسه، لاقى التكذيب والإهانة، واستمع بصبر عجيب إلى دعايات قريش الكاذبة ضده ومكافحتها العنيفة للدين الجديد.

وقد نجا الرسول ﷺ من مؤامرة قريش المحكمة التى دبرتها لاغتياله، كما نجا من مطاردة قريش له فى هجرته من مكة إلى المدينة متحملاً المشاق والأهوال.

فأى ظلم وعدوان أكبر من هذا الظلم والعدوان الذى أصاب المسلمين؟ ولكن الرسول ﷺ عندما فتح مكة قال لقريش: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"!!

لم يقاتل الرسول ﷺ عدواً إلى مضطراً لقتاله، وكل غزواته كانت لرد اعتداء خارجى أو داخلى أو لإحباط نية اعتداء، ولم يجد من عدو ميلاً للسلام إلا بادر إلى تشجيع هذا الميل، والارتباط بهذا العدو بالمحالفات.

إن دراســة أسـباب غزوات الرسـول ﷺ بروح محايدة بعيدة عن الهوى، تثبت أن المسلمين لم يعتدوا على أحد، لأن الله لا يحب المعتدين.

كما أن تلك الدراسة تثبت أن المسلمين لم يريدوا بقتالهم إكراه الناس على الدخول فى الإسلام، فقد بقى كثير من رجالات قريش على الشرك بعد الفتح واشتركوا مع الرسول ﷺ فى غزوة حنين، وكان المسلمون يعرفون أن هؤلاء لا يزالون على عقيدتهم الأولى، ومع ذلك لم يجبرهم أحد على تبديل دينهم: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

﴿ البقرة/٢٥٦ ﴾

وَلَوْ شَــاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ

﴿ يونس/٩٩ ﴾

من هؤلاء صفوان بن أمية وأبو سفيان وكلدة بن الجنيد.

ألم يكن بـإمكـان المسـلمين أن يجبروا هؤلاء على اعتنـاق الإسـلام، بعد أن استسلمت قريش وفتحت مكة أبوابها؟.

إن القول بأن غرض القتال فى الإسـلام هو نشـر الدعوة هراء لا يسـتند إلى الواقع، ولكن غرض القتال هو حماية حرية نشر الدعوة، وشتان بين الغرضين!.

ومع أن الحرب الإسـلامية دفاعية لأنها بعيدة عن الظلم والعدوان، إلا أن هذا الدفاع غير مستكن، بل هو دفاع تعرضـى كما يسمى فى المصطلحات العسكرية الحديثة، ومعناه أن المسلمين لا يبدأون بالاعتداء، ولكنهم يدافعون عن أنفسهم ضد كل اعتداء بالهجوم لسحق قوات المعتدين.

٢ـ حرب لتوطيد السلام:

أظهر مشـركو المدينة ويهودها بعد هجرة الرسـول ﷺ إلى المدينة ميلاً إلى السـلم، فشج الرسول ﷺ هذا الميل وعقد معهم معاهدة أمنت للجميع حرية الرأى والأمن.

وقد حالف الرسـول ﷺ كل قبيلة أظهرت رغبتها فى السـلام كما فعل مع بنى ضـمرة فى غزوة "ودان" وبنى مدلج فى غزوة العشيرة ومع قريش فى غزوة الحديبية.

بل كان الرسـول ﷺ يبذل كل جهده لتحقيق أغراضـه السـلمية حتى لو أدى ذلك إلى تذمر بعض أصحابه، كما حدث فى غزوة الحديبية.

إن السـلام يؤمّن الاستقرار، وقد انتشـر الإسـلام فى فترة صـلح الحديبية - وهى فترة سـلام - انتشـاراً عظيماً بين الناس لم ينتشـره فى أيام الحرب، بل إن انتشـاره فى أيام السلام كان أضعافاً مضاعفة لانتشاره أيام القتال.

إن الجنوح إلى السلم دين: وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ الأنفال/٦١ ﴾ ، فلا عجب إذا رأينا الرسول ﷺ يقبل بل ويشجع كافة العروض السلمية التى تقدم بها أعداؤه فى كل مكان وزمان.

إن السلم فى الإسلام هى القاعدة الثابتة، والحرب هى الاستثناء.

ولكن الإسـلام يدعو للسـلام لا للاستسلام: يسالم من يسالمه ويعادى من يعاديه، ولكنه لا يعتدى على أحد ولا يظلم أحداً، ولا يرتضى للمسلمين الظلم والعدوان.

٣- حرب إنسانية:

أولاً: احترام الأبرياء:

لم يتعرض الرســول ﷺ لغير المقاتلين فى غزواته، وحرص على صـــيانة واحترام أرواح وأموال الأبرياء، لما استسـلم بنو قريظة، قتل المسـلمون الرجال الذين قاتلوهم "فعلاً" لأنهم خانوا عهودهم وعرضـّوا المسـلمين للفناء، أما الأطفال والنسـاء من بنى قريظة فلم يصـابوا بأذى، كما أن الذين ثبتوا على عهودهم من اليهود لم يصـابوا بسوء أيضـاً.

والمرأة الوحيدة التى قُتلت من بنى قريظـة، هى التى قتلت مســلماً بقذفه بالرحى من فوق سطحها، وإنما كان قتلها عقاباً لها على جنايتها هذه، كما هو واضح.

ولما خرج المسـلمون لغزوة مؤتة أوصـاهم الرسـول صـلى الله عليه وسـلم بألا يقتلوا النساء والأطفال والمكفوفين ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار.

إن البرئ لا يؤخذ بجريرة المذنب: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿ فاطر/١٨ ﴾

، هذا هو مبدأ الإسلام الذى لن يحيد عنه.

ثانياً: الأسرى والرهائن:

أسر المسلمون سبعين أسيراً من قريش فى غزوة بدر، فوزع ثمانية وستين من هؤلاء على أصحابه قائلاً: "استوصوا بالأسارى خيراً".

ثم فادى أغنياء الأسرى بالمال، أما الفقراء فأطلق سراح بعضهم دون مقابل، وكلف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة، ثم أطلق سراحهم بعد تعليمهم هؤلاء الأطفال.

ولكن الرسول ﷺ أمر بقتل أسيرين من السبعين أسيراً، لأنهما أجرما فى حق المسلمين وعذبا المستضعفين منهم وشنعا على الإسلام، فكان قتلهما لجرأتهما لا لأنهما أسيران كما يدعى بعض المغرضين الذين ضلوا وأضلوا!

إن هذين الأسيرين كانا "مجرمى حرب" كما يطلق عليهما فى التعابير العسكرية الحديثة فى العصر الحاضر وعقابهما كان جزاء لما جنيت أيديهما من ذنوب وآثام.

كما فادى الرسول صلى الله عليه وسلم الأسيرين اللذين وقعا بأيدى سرية عبد الله بن جحش، فأسلم أحدهما وعاد الثانى أدراجه إلى مكة آمناً.

ذلك ما طبقه المسلمون بحق الأسرى، وهو ما ينطبق على أحدث قوانين معاملة الأسرى فى العصر الحاضر، أما الرهائن، فلم يرو التاريخ أن المسلمين اعتدوا عليهم لأن الرهائن أمانة والقرآن يقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿الأنفال/٢٧﴾

ثالثاً: الجرحى والقتلى:

كان بعض أسرى المشركين فى غزوة بدر جرحى، وقد اعتنى المسلمون بتمريضهم عنايتهم بجرحاهم سواء بسواء.

ولم يهمل المسلمون أمر الاعتناء بجرحى أعدائهم فى كل غزواتهم، لأن هذا الاعتناء قضية إنسانية، والإسلام دين الإنسانية جمعاء.

وقد دفن المسلمون قتلى المشركين فى بدر كما دفنوا شهداءهم ولم يتركوهم فى العراء. أما المشركون فقد مثّلوا بشهداء المسلمين فى أحد أفظع تمثيل.

٤ـ حرب عقيدة:

(١) لا أغراض شخصية:

لم تثر الحرب فى الإسلام أغراض شخصية، لأن الإسلام فى حقيقته دعوة للمصلحة العامة وتقديم للصالح العام، ولو أدى ذلك إلى تناسى مصالح الأشخاص.

ولم تثر هذه الحرب المطامع الشخصية وحب السيطرة والأمجاد، فقد أرسلت قريش عتبة بن ربيعة وهو رجل رزين هادئ، فذهب إلى رسول الله ﷺ يقول له: "يا ابن أخى، إنك منا حيث علمت من المكان والنسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها. إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا". ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكترث بكل هذا الإغراء.

واشتدت عداوة قريش، وعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم له فقال النبى ﷺ /: "ابق على نفسك وعلى، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق". قال الرسول ﷺ : "يا عماه.. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته".

لقد كان الرسول ﷺ يردد دائماً: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿ فصلت/٦ ﴾، ولم يترفع أبداً عن الفقراء والمساكين والخدم، وسيرته فى كل ذلك مضرب الأمثال.

إن حماية حرية نشر العقيدة هى التى أثارت الحرب فى الإسلام، ولم يكن من أسباب إثارتها الأغراض الشخصية من بعيد أو قريب.

(ب) حرب لا عنصرية:

ليس الإســـلام ديناً لقبيلة دون قبيلة، ولا لأمة دون أمة، ولا للعرب دون العجم، ولكنه للناس للعالمين جميعاً!.. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُـــولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿الأعراف/١٥٨﴾ فالإسلام يعمل لفكرة جليلة ـ فكرة وحدة الإنسانية.

إنه دين يقاوم العصـبية والتعصـب، ويكافح العناصـر والأجناس، لأنه يريد أن يجمع العالم كله على صعيد واحد: لتوحيد كلمتهم وتوحيد الله.

"إنما المؤمنون أخوة" ، "وليس لعربى فضـــل على عجمى إلا بالتقوى"، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿الحجرات/١٠﴾، كلها معناها: إن الإسلام قومية ودين تنصـــهر فيه كل قومية وكل دين، دنيا ودين.. ســيف وكتاب.. مذهب فى الحياة.

فالإســـلام قبل أربعة عشـــر قرناً، قاوم العنصـــريات والأجناس، ودعا إلى توحيد الأهداف، فمن آمن بالإسلام كان دمه وعرضه وماله حراماً على المسلمين: "المسلم أخو المسلم".

كان الرســـول ﷺ من قريش، ولكنه قاتل قريشـــاً حين اعتدت على المســلمين، وكان عربياً ولكنه قاتل قومه العرب دفاعاً عن الإسلام.

ولما تصــدى الروم لعرقلة دعوته، قاتلهم. وعندما التحق بالرفيق الأعلى، قاتل خلفاؤه الفرس وغيرهم من الأقوام والأجناس.

إن أعداء المســلمين على اختلاف قومياتهم وأجناســـهم، انصـــهروا بعد إســـلامهم بالمسلمين، فأصبح عليهم ما على المسلمين ولهم ما للمسلمين.

إن الإسـلام سـاوى بين الناس فى الدنيا وفى الآخرة.. أمام الناس وأمام الله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿الحجرات/١٣﴾

(ج) حرب لا مادية:

لم يكن من أغراض القتال فى الإسـلام الحصـول على المادة والبحث عن الأسـواق والخامات واسترقاق المرافق وفرض الاستعمار كما أسلفنا.

خرج المسـلمون للتصـدى لقافلة أبى سـفيان العائدة من الشـام فى غزوة بدر، لأنهم أرادوا أن يحرموا قريشـاً من طريق مكة - الشـام التجارية فيؤثّرون بذلك على حالتها الاقتصادية حتى يخففوا من غلواء عدوانهم على المسلمين.

ولكن القافلة أفلتت من أيديهم، ومع ذلك اصطدمت قواتهم بالمشركين، وكان بإمكانهم العودة إلى المدينة بأمن وسلام بكل يسر وسهولة.

ولو كانت القضـايا المادية هى التى دعتهم للخروج إلى بدر، لعادوا أدراجهم عندما علموا بوصول قافلة قريش سالمة إلى مكة.

وبعد غزوة حنين، انتظر الرسول ﷺ حوالى شهر قدوم وفد هوازن إليه ليعيد إليهم ما غنمه المسلمون من أموالهم، ولكنهم لم يحضروا، فاضطر إلى توزيع الغنائم، وأعاد السبى إلى وفد هوازن الذى وصل بعد توزيع الغنائم على الناس.

ولكن ما هو نصيب الرسول ﷺ من الغنائم؟ إنه الخمس، وهذا الخمس مردود عليهم، لأنه يصرف فى مصالحهم العسكرية وغير العسكرية، فهل أبقى الرسول ﷺ لنفسه شيئاً من المال؟

قالت عائشـة أم المؤمنين رضـى الله عنها: "لم يمتلئ جوف النبى ﷺ شبعاً قط، وإنه كان فى أهله لا يسـألهم طعاماً ولا يشـتهاه، إن أطعموا أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب".

وقالت: "كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمر والماء".

وقالت: "توفى رسول الله ﷺ وليس عندى شئ يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير فى ر ف لى. وتوفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير".

ذلك ما أبقاه الرسول ﷺ لنفسه، ولو كانت له رغبة فى المادة، لأبقى لنفسه مال زوجه خديجة، وهو مال كثير!!

إن الأهداف الرفيعة تتعب الأجساد والنفوس فى الحصول عليها، وقد أتعب الرسول ﷺ نفسه وأهله وأصحابه فى سبيل أهداف الإسلام، ليكونوا أسوة حسنة للمسلمين فى كل زمان ومكان.

٥- حرب مثالية:

إن تعريف الحرب العادلة كما تنص عليه مصادر القانون الدولى، بالرغم من أنه حبر على ورق بالنسبة لكافة الحروب قديماً وحديثاً، إلا أنه قاصر عن الوفاء بحق تعريف القتال فى الإسلام.

إن أصح تعبير يمكن إطلاقه على تلك الحرب هو: الحرب المثالية.

مثالية، لأن أهدافها الدفاع عن حرية الرأى وتوطيد أركان السلام: تصون أرواح وأموال الأبرياء والضعفاء، وتعطف على الأسرى والرهائن، وتواسى المرضى والجرحى، ولا تمثّل بالقتلى بل تدفنهم كقتلاهم، ولا تثيرها الأغراض الشخصية ولا العصبية ولا المنافع المادية ولا الاستغلال والاستعمار.

فإذا لم تكن هذه الحرب مثالية، فأى حرب فى التاريخ كله يمكن أن يطلق عليها هذا التعبير؟

فلا عجب إذن إذا استطاعت هذه الحرب أن تسيطر على العقول بالمُثل العليا قبل أن تسيطر على الحصون والقلاع بالسلاح والرجال.

إن هذه الحرب المثالية، جعلت جراح المغلوبين تلتئم بسرعة، فينضمون طائعين إلى الغالبين ليكونوا جميعاً تحت راية واحدة، هى راية الإسلام.

ولو كانت حرباً ظالمة لما دام الظلم، لأن الظلم لا يدوم وإن دام دمر الغالب والمغلوب، فهل يفقه الظالمون ذلك، أم على قلوبهم أقفالها؟!

ولكنها كانت حرباً عادلة إلى حدود المثالية، فاستجاب العرب لأهدافها العالية، ثم حملوا رسالة تلك الأهداف إلى العالم واستجاب لها الفرس والروم وكثير من الأمم والقوميات الأخرى، ثم حملوا بدورهم مشعل هدايتها شرقاً وغرباً، فاستنار الشرق بنور الإسلام على حين كان الغرب فى دياجير الجهل والظلام.

الإسلام.. جهاد وذياد

الجهاد فى الشرع الإسلامى هو بذل الجهد فى مدافعة الشر واستجلاب الخير وقد يكون الجهد نفسياً وقد يكون مادياً. والعدو الذى تجاهده قد يكون ظاهراً أو قد يكون خفياً وبعبارة أخرى قد يكون عدوا يعلن عداوته وقد يكون عدوا يتظاهر بمظهر الصديق الذى يحاول أن يجلب للإنسان اللذة والنعيم وهو فى الحقيقة يجلب له الوبال ويجره إلى سوء المآل. والإنسان مجاهد فى الحالتين، وقد وصف الرسول ﷺ جهاد الإنسان ضد العدو بأنه الجهاد الأصغر لظهور العدو، وللحرص منه، والاستعداد لمنازلته، وقصر مدة هذا الجهاد. أما فى مجاهدة النفس ومحاربة الهوى فقد سماه الرسول ﷺ بالجهاد الأكبر لاختفاء العدو وخداعه وطول وسوسته. على أن هناك ارتباطاً كبيراً بين الجهادين فالجهاد الأكبر تهذيب للنفس وتوجيه لها تجاه الخير وهى بذلك تستعد لجهاد العدو - أما النفوس التى انحرفت وغلبتها الرذيلة وسارت مع الهوى فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو ولا أن تصارع المعتدين.

والجهاد أيضاً هو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب، وأكبر وطر للمسلم، طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه والإسلام لأوامره وذلك يحتاج إلى جهاد طويل شاق ضد كل ما يزاحم ذلك من عقيدة وتربية وأخلاق وأغراض وهوى، وكل من ينافس فى حكم الله وعبادته من آلهة فى الأنفس والآفاق، فإذا حصل ذلك للمسلم وجب عليه أن يجاهد لتنفيذ حكم الله وأوامره فى العالم حوله وعلى بنى جنسه، فريضة من الله وشفقة على خلق الله. فجهاد المسلم إنما هو لتنفيذ شريعته التى جاء بها الأنبياء وإعلاء كلمته ونفاذ أحكامه فلا حكم إلا لله وحده ولا أمر إلا له. وهذا الجهاد مستمر ماض إلى يوم القيامة وله أنواع وأشكال لا يأتى عليها الحصر، منها القتال وهو دائماً دفاعى وقد يكون أشرف أنواع الجهاد. والقتال فى شريعة الإسلام جعل من أجل غرضين أساسيين:

١- الدفاع عن النفس عند الاعتداء عليها والدفاع عن الأرض والبلاد.

٢- الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتعاليم الإلهية، وإفساح المجال لنشر تعاليم الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة فى جو يسوده الأمن والسلم

وكون الجهاد فى الإسلام دفاعاً ورداً للعدوان قال تعالى: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ، فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿البقرة ١٩٠/١٩٢﴾

وقال تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿الحج/٣٩﴾

ويتحتم الجهاد على المسلمين أيضاً عند الاضطهاد الدينى ومصادرة حرية التدين قال تعالى: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿البقرة/١٩٣﴾

لهذا ينبغى أن تكون الحروب الإسلامية فى سبيل الله دفاعية كما كانت، وألا يقصد بها الحصول على غنيمة أو رفع ذكر بالشجاعة وقد ورد تعبير "فى سبيل الله" مرتبطاً بالجهاد والقتال اثنتين وثلاثين مرة، ولا يكاد أمر بالقتال أو الجهاد يخلو من هذا التعبير قال تعالى: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴿البقرة/١٩٠﴾

وارتبطت بالإنفاق على المعركة أيضاً: وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿البقرة/١٩٥﴾

ويضمن القرآن نصر الله لمن قاتل فى سبيله مخلصاً وجهه إليه قال تعالى: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿الحج/٤٠﴾

وقال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الروم/٤٧﴾

وفى الحديث عن فضل الجهاد ومكانته يمدنا القرآن بأروع المعانى قال تعالى: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿النساء/٧٤﴾

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الصف ١٠/١٣﴾

ألا ما أعظم دروس الجهاد وأوسع مجالاتها فى حياة المسلمين الأولين.. ثم ما أحوجهم فى هذا العصر أمام كثرة أعدائهم وتفرق كلمتهم إلى استرجاع هذه الدروس حتى يجاهدوا أنفسهم، وأعداءهم، صادقين فى سبيل الله وعندئذ كما وعدهم الله.. سينصرهم الله.

وسبحانه هو القائل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿محمد/٧﴾

يقرر القرآن الكريم أول ما يقرر فى فلسفة الحرب الإسلامية: تربية النفوس المسلمة على حب السلام، ويؤكد فى هذا السبيل طبيعة الكراهية فى هذه النفوس للقتال فيقول:

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿الأنفال/٦١﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿النساء/٩٤﴾

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿البقرة/٢٠٨﴾

وجاءت التعاليم الإسـلامية بتعبير للتحية بين المسـلمين، وهو (السـلام عليكم)، يوحى إليهم دائماً بحب السـلام، ويذكرهم أبداً بواجب نشـر السـلام بينهم، وعدم العدوان على غيرهم، كما جاء الحديث النبوى ناهياً عن تمنى المسـلم لقاء العدو، موجهاً إياه إلى التماس العافية.

إلى جانب هذا الحض القرآنى على السلام يقرر القرآن أن الحرب قد تكون فرضاً لا عذر منه، مع إدراكه لطبيعة الإنسانية الكارهة للقتال فيقول الله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة/٢١٦﴾

ذلك أن المسلمين مع حبهم للسلام وكرههم الطبيعى للحرب، لن يسلموا من مكر غـادر، ولن ينجوا من بغى معتـد أثيم، ولن يعزوا على أمنيـة طـامع فى ثروات أفرادهم وخيرات بلادهم، إلا إذا عرفوا للسـلام حقه فاحترموه، وعرفوا للحرب واجبها فأحسنوه. ومن هنا جاء قول القرآن:

: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة/٢١٧﴾ ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴿البقرة/١٩١﴾

نعم لئن كانت الحرب شديدة على النفوس المسلمة المحبة للسلام، كبيرة بتكاليفها وتضحياتها إلا أن الفتنة أشد وأكبر، فإن المتآمرين يفتنون المسلمين عن دينهم، سياسياً وخلقياً وثقافياً واقتصادياً وعسكرياً، ومن ثم وجبت حربهم وحقت لعنتهم.

إن الحرب الإسلامية جهاد وذياد. جهاد فى سبيل الدعوة إلى الحق، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتطهير البشرية من أرجاس المادية والاباحية.. وهى ذياد عن حمى الإسلام، لئلا تطأه أقدام ملوثة بالدنس، وتمتد إليه يد باغية بالسوء، وتنطلق ألسنة حداد طعناً فى المسلمين.

وليست عسكريتنا الإسلامية كعسكرية الغربيين: عدتها الخراب والدمار، وغايتها الاستلاب والاغتصاب. وإنما هى نظام لرد الحق المنهوب، ونصر الكرامة الإنسانية المنتهكة، ونشر الحرية المطلوبة، وتعميم الأمن والرخاء.

يقول القرآن الكريم عن الغاية من الحرب الإسلامية:

الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿النساء/٧٦﴾

وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴿البقرة/١٩٠﴾

وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿النساء/٧٥﴾

ويقول عن التنظيم العسكرى والاستعداد الحربى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا ﴿النساء/٧١﴾

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿الصف/٤﴾

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿الأنفال/٦٠﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴿الأنفال/٤٥﴾

ويقول القرآن عن مصدر الانتصار فى الحرب الإسلامية:

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿الأنفال/١٧﴾

وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿آل عمران/١٢٦﴾

ويقول القرآن عن مثوبة القتال الإسلامى:

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿النساء/٧٤﴾

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿آل عمران/١٥٧﴾

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿آل عمران/١٦٩﴾

ذلك شئ يسير من روائع القرآن فى الحرب الإسلامية الفاضلة العادلة، التى هى حرب أشبه بالسلم، وأقرب للسلامة، وأضمن لإقرار الرخاء والإخاء فى الأرض، لأنها مقاومة للبغاة، وتأديب للمعوقين وزجر للظلمة ليست كحرب الغربيين: مطامع وفظائع، وافتراء واعتداء، وسلباً لحرية الحى، وانتهاكاً لكرامة الحياة.

ويضع القرآن - بعد ذلك - قواعد ووصايا حكيمة رحيمة، للحرب الإسلامية إلى المسارعة لتلبية نداء السلام إذا وجه إليهم من أعدائهم: وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿الأنفال/٦١﴾

وهو فى الوقت نفسه، يحذرهم من الإفراط فى حب السلام، بحيث يغفلون عن مكائد المعاهدين من أعدائهم: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴿الأنفال/٥٨﴾ – وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿التوبة/١٢﴾

والقرآن يوصى فى آية واحدة بالإثخان وشد الوثاق، وبالمن على الأسرى أو مفادتهم بأسرى المسلمين عند الأعداء: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿محمد/٤﴾

وفى باب مقت الجبن، ومقاومة التخاذل وخشية الموت يقول القرآن: (أينما تكونوا يدركم الموت، ولو كنتم فى بروج مشيدة) – أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿النساء/٧٨﴾ - الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿آل عمران/١٦٨﴾ – وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿آل عمران/١٤٥﴾ – ، وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿آل عمران/١٤٦﴾ إلخ

وعندما خالف المحاربون المسلمون واجب (الطاعة) فى نظام الحرب الإسلامية، جاءتهم العبرة والموعظة العمليتان الزاجرتان فى معركة أحد التى بدأت بانتصارهم، واختتمت بهزيمتهم لما خالفوا أمر قائدهم - ﷺ- فنزل الرماة من الجبل. وانتهزت جنود قريش ذلك، فانقضوا على المسلمين منه.

ويقص القرآن قصة أخرى، بل درساً تأديبياً.. عندما غفل الجنود المسلمون عن حقيقة الغلبة فى الحرب، وباعثها الحق، وهو الإيمان والصبر والتضحية، وليس كثرة العدد والعتاد: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿التوبة/٢٥﴾

هذا هو نظام الجندية، كما وضعه القرآن لإدارة الحرب الإسلامية. وهو كما نرى نظام حكيم رحيم، سبيله: الانتصاف والرحمة، وغايته دعوة الحق، ومقاومة العدوان.

بقى أن نلم بتاريخ الحرب الإسلامية كما وقعت فى حدود هذا النظام:

ففى رسائل النبى عليه الصلاة والسلام - فى العام السابع الهجرى - إلى ملوك الأعاجم يومذاك (كسرى، هرقل، المقوقس، والنجاشى) وغيرهم من ملوك الجزيرة العربية - كان عليه الصلاة والسلام يقول لكل واحد منهم: أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم أمتك!

ومعنى هذه الدعوة النبوية السليمة أن النبى ﷺ كان يعتقد قابلية تلك الأمم التى يحكمها أولئك الطغاة، لتلبية دعوته، واعتناق دينه، وكان يعلم أن الملوك والرؤساء وحدهم هم الحوائل والعوائق دون إسلام رعاياهم حرصاً على سلطانهم وزعاماتهم واقطاعياتهم من المال والعقار والعبيد.

وقد ثار بعض أولئك الملوك والرؤساء على سفراء النبى ﷺ الذين حملوا إليهم دعوة الإسلام، وهددوا بمحاربة المسلمين.. فلم يكن بد للجيش الإسلامى من أن يستعد للدفاع وأن يستعد للهجوم أيضاً فى سبيل دعوته إلى رعايا أولئك الملوك.. تلك الرعايا التى كانت مستعدة لاعتناق الإسلام ديناً، أو على الأقل كانت مستعدة لقبول الإسلام كدولة تحكمها بالعدل والمساواة بدلاً من ملوكها الطغاة المترفين.

إن الفتوح الإسلامية التى تجاوزت بلاد العرب لم تكن طمعاً فى استعمار البلاد المفتوحة، أو رغبة فى استذلال أهلها - كما يفعل الفاتحون الغربيون اليوم - وإنما كانت ضماناً لسلامة الدولة الإسلامية من جانب، وحباً فى إدخال العالم الحائر التعس، فى دين الحق والخير والعدل والسلام من جانب آخر.

فعندما بدأت الأحوال فى دولتى فارس والروم تضـــطرب حينذاك، لم يكن الخليفة المسلم ملوماً فى العمل على حماية دولة الإسلام من عدوى ذلك الفساد بما أعد من جند للفتوح الجديدة، التى يقيم بها فى البلاد المفتوحة قواعد عســكرية تحمى ظهر الدولة الإسلامية وقواعد اجتماعية تصلح بها حياة الناس إن رضوا بالإسلام ديناً، وإن لم يرضـــوا، فهم بعد الجزية والمســالمة أحرار مكرمون، محفوظة حقوقهم، محمية أعراضهم، كالمسلمين تماماً.. وهذا أندر ما يطمع فيه مغلوب من غالبه؟

ولقد اتهم المؤرخون الأوروبيون الإسلام بأنه: دين السيف، ودين عدوان، ودين (قطع طريق) ولو رجعوا إلى تاريخ الحرب الإســلامية لعرفوا أولاً - أن الإســلام كان فى بداية عهده هو المعتدى عليه، ولم يكن معتدياً على أحد، وكان المســلمون يؤمرون - فى القرآن - بقتال من يقاتلونهم فحسب.

ولعرفوا ثانياً: أن المســلمين كانوا يحاربون من لا يؤمن عهده، ولا يتقى شــره بالمعاهدة والمسالمة - كما جاء فى وصايا القرآن.

ولعرفوا ثالثاً: إن ما كان من حرب المســلمين لغيرهم هجوماً لم يكن إلا مبادرة بالدفاع بعد التثبيت من نكث العدو للعهد، وإقباله على القتال، حتى إن الجيش الإسلامى رجع من تبوك دون أن يطارد جيش الروم الذى نكص على عقبيه، على فرط ما تكبد المسلمون من متاعب ونفقات، فى مسيرهم إلى تبوك.

ولعرفوا رابعاً: إن (الســرايا الإســلامية) التى أســموها (قطعا للطريق) قد اتبع نظامها قائدهم العسكرى الأشهر نابليون، عندما منع السفن الإنجليزية التجارية من

الوصــول إلى القارة الأوروبية، وحول المعاملات الاقتصــادية من طريق بريطانيا إلى طريق فرنســا.. هذا إلى أن القانون الدولى الحديث، ونظام هيئة الأمم المتحدة، وتجارب الحربين العالميتين الماضيتين قد أقرت فرض العقوبات الاقتصادية على الدول المعادية.

ولعرفوا خامســاً: الفرق الفارق بين الإســلام كدين عالمى عام جاء ليمنح العالم كله منهاج الخير والحق والعدل والســلام، وبين اليهودية كدين خاص بشــعب إسرائيل، يكره معتنقوه إن يشاركهم فيه الناس، فكانوا من أجل ذلك لا يدعون إليه أحداً من غيرهم - وبين المسيحية كدين جاء للتربية الخلقية، دون القوانين السياسية التى كانت الدولة الرومانية تفرضــها وتنفذها، وهى دولة أجنبية مســيطرة لم يكن لأصحاب الدين المسيحى الجديد قدرة على مناهضتها.

ولعرفوا أخيراً: إن الإســـلام لم يحارب بالســـيف مبادئ وأفكار ودعوات يمكن مقاومتها بالدليل والحُجة والبرهان.. وإنما شهر الإسلام السيف فى وجوه سلطات وقوى وزعامات ورئاســـات وموروثات كانت تقف فى ســـبيل دعوته الجديدة الرشيدة، وهى تطرق الأبواب والآذان والقلوب..

ولكن أنى لهؤلاء المؤرخين الحاقدين أن يعرفوا هذه الحقائق من تاريخ الحرب الإسلامية - وهم عامدون عمداً، وقاصدون قصداً إلى الكذب والبهتان...؟



أخلاقيات الحرب
من منظور الإسلام
وتطبيقاً من السيرة النبوية

على كتاب الله وســـنة رســـول الله ﷺ قامت أول مدرســـة عســـكرية فى تاريخ الإسلام، تعالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية، وتضع خير المبادئ لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وقوانينها وآدابها.

وكان الرسـول ﷺ قائد هذه المدرسـة ومعلمها الأول، وهو المثل الكامل والقدوة المثلى كما يقول الله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿الأحزاب/٢١﴾ وهو القائد الذى اصطفاه الله ليبلغ أعظم رسالة، وجعله تحت حراسته ورعايته حتى كان أفضل قومه، واستوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنســـان قبله ولا بعده حتى خاطبه الله بقوله: وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿القلم/٤﴾ وحتى حدّث هو عن نفسه فقال: "أدبنى ربى فأحسن تأديبى".

وإذا كان القادة العسكريون يتعلمون فنون القيادة والحرب على يد غيرهم من القادة والمعلمين فى المعاهد العسكرية، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم "لم يأخذ عن غيره" وإنما "أخذ عن الله جل شأنه"، قال تعالى: وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿النساء/١١٣﴾

فلا عجب إذن أن يظهر عليه الصــلاة والســلام فى أمور الحرب ما لا يتســامى إليه قادة الحروب - الذين تعلموا فنونها، واتخذوها صـــناعة - من عبقرية فذة فى القيادة والتخطيط وإدارة المعارك الحربية.

فى هذه المدرسة العسكرية الإسلامية، وعلى يد قائدها ومعلمها ﷺ تعلم أجدادنا الأوائل من قادة وجنود جيش الإســلام الأول، وطبقوا تعاليمها ومبادئها ونظرياتها عملياً فى ميادين القتال إعلاءً لكلمة الله ودفاعاً عن الدين والأمة، فكانوا مضـــرب الأمثال فى الكفاءة القتالية، وفى الشـــجاعة والعبقرية الحربية، وجاءت النتائج بما يبث بالبرهان القاطع أن مبادئ العسكرية الإسلامية قد أثبتت عملياً فى المعركة - وهى المحك الحقيقى للنظريات الحربية - ضحتها وكمالها.

ولقد حقق هذا الجيش بقيادة الرسول ﷺ هدفه الأساسوهو تأمين الدعوة، وقيام الدولة الإسلامية، وتوفير الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية، ولقد كان الهدف محدداً بكل وضوح منذ البداية، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن نظم جيشه فى أول معركة حاسمة بينه وبين المشركين، رفع يديه بالدعاء قائلاً: "اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض"، ولعل أهم الدروس التى تستفاد من ذلك أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين أمن الأمة الإسلامية وسلامتها وبين قدرتها على الدفاع عن نفسها ورد العدوان عليها، وأن بناء القدرات الدفاعية هى بالنسبة لها "قضية وجود ومصير".

الحرب الإسلامية حرب عادلة وفاضلة

وقد وضع الإسلام للحرب نظاماً شاملاً يتسم بالعدل والرحمة وحُسن المعاملة، وإذا كان "الجهاد" فضيلة إنسانية عليا، وإذا كان الباعث إليه قضية أيضاً، إذ هو إعلاء لكلمة الله ورد الاعتداء، فإن الفضيلة الإسلامية تكون واجبة الرعاية فى الجهاد سلماً وحرباً، ولا يخفى أن رعايتها فى الحرب "تُعلى من قدر من يتمسك بها" لأنه يتمسك بها فى أصعب الظروف وأشد المواقف، ويراعى الفضيلة فى موقف "أبيحت" فيه النفوس!

من أجل ذلك فإن حرب الإسلام تنطوى على الآداب والفضائل التالية مؤكدين على أن هذه الآداب تنطوى عن طبيعة الإسلام الذى اختاره الله ديناً لإصلاح الحياة وانقاذ البشر، ومن ثم فالتزام المسلم بهذه الآداب مع أعدائه عند قتالهم أمر لا يخضع للتغيير والتبديل زماناً ومكاناً لأنه التزام عقيدى بدفع المسلم على تنفيذه طاعته لله ولرسوله ﷺ .

ومن آداب وأخلاقيات الحرب فى الإسلام ما يلى:

١ـ أدب الإسلام مع القتلى والجرحى والمرضى

لا يمكن تصور قتال ـ خاصة وقد تطورت وسائله وأسلحته وأصبحت أكثر فتكاً وإبادة ـ دون قتلى وجرحى وإن قلوا، ومن هنا أرسى الإسلام آداباً، وشيد مبادئ للتعامل مع قتلى الأعداء وجرحاهم تتفق وطبيعة هذا الدين ورحمته بالبشر حتى وهم جثث بالية لا روح فيها ولا حياة.

ويأتى النهى عن التمثيل بجثث القتلى أدباً إسلامياً رفيعاً يلقنه الرسول ﷺ لصحابته ويأمرهم بالالتزام به، يروى البيهقى فى سننه عن سمرة بن جندب قوله: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحثنا على الصدقة وينهانا عن المُثلة".

وعليه فإن ما قتل المســـلم عدوّه فلا يجوز له أن يعذب جثثه أو يمثل بها مبالغاً فى الانتقام منها ببقر البطن أو تقطيعها أشلاء أو صلم الأذن أو فقء العين، أو رفع الجماجم فوق أســـنة الســـيوف والحراب.. إلى غير ذلك من الأعمال البربرية الوحشية التى لا تتناسب مع الإسلام ورحمته، كذلك لا يجوز تحريق جثث القتلى بالنار، يقول الفراء: "ولا يجوز أن يحرق بالنار منهم حياً أو ميتاً لقوله صـــلى الله عليه وسلم: "لا تعذبوا عباد الله بعذاب الله".

ويبلغ هذا الأدب قمته وروعته عندما نعلم أن الوحى نزل على الرسـول صـلى الله عليه وســلم، يوجهه ويرفعه - وهو نبى الرحمة والهداية - عن مجرد عقد النية على التمثيل بجثث قتى الأعداء، وذلك عندما رأى صـــلى الله عليه وســـلم ما فعل بعمه (حمزة بن عبد المطلب) رضـــى الله عنه، وغيره من شـــهداء المســـلمين فى "غزوة أحد" حيث قامت "هند بنت عتبة" ونســوة من قريش يمثلن بجثث شـــهداء المسلمين: يجدعن الأنوف، ويصلمن الآذان، ويبقرن البطون، وكانت هند تصنع من آذان الشـــهداء وأنوفهم خدماً وقلائد وبلغت بها الوحشـــية أن قامت ببقر بطن حمزة عم الرســـول ﷺ وانتزعت كبده وجعلت تلوكها بأســـنانها، وحينما خرج الرسول ﷺ يلتمس الشهداء رأى عمه حمزة وقد مُثل به مع غيره من الشهداء فقال: "لولا أن تحزن صفية ويكون سُنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصـــل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم" - فلما رأى المســـلمون حزن رســـول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب، ويروى عن (ابن عباس): أن الله نزل فى ذلك من قول الرسول وقول أصحابه: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿النحل ١٢٦/١٢٧﴾ فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر ونهى عن المُثلة[١١].

أما عن أدب الإســلام مع جرحى الأعداء ومرضــاهم، فإن الإســلام قد نهى عن قتلهم أو الإجهاز عليهم لأنهم بســبب الجرح والمرض لا يتصـــور منهم الممانعة والمقاتلة شـأنهم فى ذلك شـأن النسـاء والأطفال والشـيوخ والزمنى، ويقول شـيخ الإسلام "ابن تيمة" بمنع قتلهم بأنهم ليسوا من أهل الممانعة والمقاتلة لأن جراحهم وأمراضهم مانعتهم عن المشاركة فى قتال المسلمين.

[١١]- السيرة النبوية لابن هشام

ونســـتأنس لهذا الأدب بما روى عن الرســـول ﷺ ، أنه أمر يوم فتح مكة: بعدم الإجهاز على جريح أو تتبع مدبر أو قتل أسـير وترك من أغلق عليه بابه آمناً، وما حدث فى فتح مكة كما يقول أحد العلماء: "ليس خاصـــاً بأهل مكة فإن اللفظ عام ويُتمسك به على عمومه كما ورد.. فإن اطمأن المسلمون إلى الظفر والنصر، فلا مانع من معاملة جرحى العدو ومرضـــاه أحســـن وأرفق معاملة، فالإســـلام دين الرحمة بالعالمين وأدعى ما تتطلبه الرحمة والإنســـانية هى حال المرض والجرح"[١٢].

وبعد عرض هذا الأدب الرفيع من آداب الإســـلام مع قتلى الأعداء وجرحاهم ومرضـــاهم نختتم حديثاً عنه بذلك التصـــوير الجميل الذى ذكره أحد الباحثين فى علة عدم الإجهاز على جرحى الأعداء وقتلهم حيث يقول:

"فلا يقتل المســـلمون فى حرب أعدائهم محارباً لهم إذا أثخنته الجراح ولم يعد قادراً على القتال لأن غاية الحرب عند المسلمين هنا هى الوقاية من شر هذا العدو، فإذا انتزعت أنيابه وعطلت مخالبه لم يكن قتله بعد هذا إلا ظلماً وتعدياً وإلا شـــفاء لحقد، واستجابة لانتقام، وليس بالطيب من يحقد على مريضه"[١٣].

ولسنا فى حاجة أن نشير إلى أنه ينبغى على المسلم أن يتأكد من جرح عدوه أو مرضـــه، وأن هذا الجرح أو ذاك المرض معجز بالفعل ويحول بين صـــاحبه وبين القتال، فربما لجأ العدو إلى التمارض أو جرح نفســـه كوســـيلة لخداع المســـلمين ومراوغتهم حتى إذا ما أتيحت له فرصـــة صـــوَّب ســـهمه أو فوهة بندقيته أو مدفعه تجاه صدورهم غدراً بهم.

٢ـ أدب الإسلام مع أسرى الأعداء

عادة اتخاذ أســـرى الحرب عادة قديمة لازمت الحروب منذ مارســـها الإنســـان، ذلك أنه لا يمكن تصـــور حروب دون أســـرى ـ وإن قلوا ـ ولكن الجديد والذى لم يكن للبشرية سابق علم به قبل الإسلام هو أن يكون لأسير الحرب لدى أعدائه آداب ومبادئ فى معاملته تغلب عليها الإنســـانية وتعلوها الرحمة. وســـوف تتضـــح هذه الحقيقة عند مقارنة أدب الإســـلام مع الأســـرى بمعاملة الأســـير لدى الأمم غير المسلمة، تلك المعاملة التى كانت ـ ومازالت ـ تتسم بالقسوة والتوحش "فيروى أن الفرس كانوا يعاملون أســـراهم بقســـوة لا شـــفقة معها، فيقلعون أعينهم ويســـومونهم أنواع العذاب ثم يقتلونهم أو يصلبونهم"[١٤].

---

[١٢]ـ كتاب "آثار الحرب فى الفقه الإسلامى" للدكتور وهبه الزحيلى

[١٣] ـ كتاب "الحرب والسلام فى الإسلام" للأستاذ عبد الكريم الخطيب

[١٤] ـ كتاب "الحرب والسلام فى شرعة الإسلام" للدكتور مجيد خدورى

وكان اليهود ومازالوا يتعاملون مع أسراهم على أنهم ليسوا بشراً أسوياء بل هم مخلوقون للتسخير والاستعباد، وكل أجناس العالم من غير الجنس اليهودى من هذا القبيل ولتأكيد هذه الفكرة الممجوجة لجأوا إل تحريف توراتهم وتبديلها لتوافق هواهم وشهواتهم فى السيطرة والاستعباد. من هذه النصوص المحرفة التى تخص على استعباد الأسرى وتسخيرهم أو قتلهم ما جاء فى التوراة نسبة إلى موسى عليه السلام - وهو منه براء "حين تقترب من مدينة كى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، فإذا أعطاها الرب إلهك لك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فهو غنيمتك تغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب إلهك[١٥].."

بل الأعجب أن تكون المسيحية التى قامت على التسامح والمهادنة أشد قسوة فى معاملة الأسرى، فكم ارتكبت مذابح بشرية تحت شعار الصليب، يشهد على وحشيتها وبربريتها شاهد منهم فيقول: "يدل سلوك الصليبيين فى جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة، فكانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء والأهالى العزل والمحاربين والنساء والأطفال فيقتلون وينهبون على غير هدى[١٦]"، وينقل هذا الشاهد عن أحد المؤرخين الذين صاحبوا الحملات الصليبية أسلوب الصليبيين فى معاملة من كان يقع تحت أيديهم من الأسرى فيقول: "كان قومنا يجوبون كاللبؤات التى خطفت صغارها، فكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستبقون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة!! وكان قومنا يقبضون على كل شئ يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية، فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار فى طرق المدينة المغطاة بالجثث[١٧].

ومن يقرأ تاريخ الحروب الصليبية وتعامل الصليبيين مع محاربيهم وأسراهم لا يسعه إلا أن يردد مع (غوستاف لوبون) - وهو كاتب مسيحى - قوله: "اقترف هؤلاء من الجرائم نحو المسلمين والنصارى ما لا يصدر عن غير المجانين من الأعمال الوحشية، فكان من أحب ضروب اللهو إليهم قتل من يلاقونهم من الأطفال وتقطيعهم إرباً إرباً وشيهم كما روت كوميين بنت قيصر الروم!!".

---

[١٥] - نقلاً عن كتاب "حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة
الشيخ محمد الغزالى – دار الكتب الإسلامية – ط ٣ ص ١٠٢

[١٦]- كتاب "حضارة العرب" للأستاذ غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٤٠٠

[١٧] - المرجع السابق ص ٤٠٠

ونطوى هذا السجل الأسود على ما فيه من صفحات دموية وحشية سطرتها الأمم والشعوب غير المسلمة ومازالت - فى معاملة أسراها، لنفتح الصفحة المشرفة الضيئة فى تاريخ البشرية جمعاء - لنقرأ فيها سطوراً من معاملة الإسلام لأسراه.

وأول ما يطالعنا فى أدب الإسلام مع الأسرى أنه لا يسوى بين من قاتل المسلمين وحرص على قلتهم وبين من لا يتوقع منه ذلك، ومن ثم يقسمهم إلى قسمين ويعامل كل صنف منهما بما يتناسب ودوره فى الحرب، وسيتضح لنا من خلال هذا التصنيف مدى عدالة الإسلام ورحمته وحرصه على هداية البشر، وإرادة الخير لهم:

أ- النساء والأطفال:

وهذا الصنف لا يجوز قتله إذا أسر باتفاق الفقهاء، بل ينقل إلى مقاتلى المسلمين مع قائمة طويلة من الآداب القرآنية والأحاديث النبوية التى تأمر بحُسن معاملتهم والرفق بهم وتعهدهم بالتربية الصالحة.

وأدب الإسلام مع هذا الصنف يؤكد معانى ثلاثة لا تُعرف إلا فى الإسلام وحده:

(١) العدل: ويظهر جلياً فى أن الإسلام لم يجزْ قتلهم، وذلك لأنهم ليسوا من أهل الممانعة والمقاتلة، ولم يتوقع منهم الاعتداء على المسلمين ومن ثم يكون قتلهم ظلماً لهم واعتداء عليهم، فضلاً عن أنه يفوّت الأمل فى اهتدائهم إلى الإسلام وهو الغاية العظمى التى ترتجى من القتال فى الإسلام.

(٢) الرحمة: وذلك يبدو فى أن الإسلام حينما جعل هذا الصنف يوزع على مقاتلى المسلمين مع إلزامهم بحُسن رعايتهم - قد حال بينهم وبين التسول والفقر والفاقة، ذلك لأن احتمال قتل أولياء هذا الصنف أثناء المعارك احتمال كبير، ورحمة بهم من أن يعشوا بلا عائل يتكففون الناس أوكلهم إلى أحد المقاتلين ليعولهم ويحسن تربيتهم وييسر لهم متطلبات الحياة.

(٣) الحرص على الهداية: ما من شك أن الكفر ظلم عظيم للنفس، ونشأة الطفل فى أسرة كافرة ومجتمع كافر يحسنه له ويرسخه فى نفسه، ومن هنا كان أدب الإسلام مع هذا الصنف وجعله تحت رعاية المقاتلين المسلمين بمثابة تهيئة للمحض الإيمانى الذى قد يرغبه فى الإسلام لما يلقاه ممن هو تحت يده معاملة حسنة، كذا النساء إذا ما أنسن ممن هن تحت يده معاملة طيبة كان احتمال دخولهن فى الإسلام وهدايته احتمالاً كبيراً.

ب- الرجال المقاتلون:

أما هذا الصنف وهو الذى حمل السلاح فى وجه المسلمين وكان حريصاً على قتلهم، فيجوز فيه واحد من أمور أربعة استنبطها الفقهاء من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ، ولولى أمر المسلمين أن يتخير منها ما يتناسب وظروف الدولة الإسلامية، وظروف أعدائها.. إلى غير ذلك من الملابسات التى تحيط بالسياسة العليا للدولة.

أما الأحكام الأربعة فهى:

١- **المَّن:** وهو إطلاق سراح الأسير والعفو عنه، دونما مقابل، وذلك ما فعله الرسول ﷺ مع أمامة بن أثال بعد أسره، كذا ما فعله مع أهل مكة بعد الفتح، ويقال أن المن هو العتق بعد الرق.

٢- **الفداء:** وهو إطلاق سراح الأسير مقابل فدية مالية كما حدث مع بعض أسارى بدر أو مبادلته بأسرى المسلمين، أو إطلاق سراحه مقابل خدمات معينة يؤديها للدولة الإسلامية، فقد جاء أن الرسول ﷺ أطلق سراح بعض من أسرى بدر مقابل تعليمهم القراءة والكتابة لأبناء المسلمين.

٣- **الاسترقاق:** وهو جعل الأسير رفيقاً للمسلمين كما هو الحال مع الصنف الأول من الأسرى (النساء والأطفال)، ومن الفقهاء من اشترط لهذا الحكم أن يكون الأسير من أهل الكتاب (كاليهود والنصارى) أو ممن لهم شبه كتاب كالفرس.

٤- **القتل:** وهو قتل الأسير عقاباً له لمشاركته فى قتال المسلمين وحرصه على قتلهم، بل الأكثر احتمالاً أنه قد يكون قتل أحداً منهم بالفعل قبل أسره.

هذه هى الأحكام التى قررها الفقهاء للأسرى فى الإسلام، وربما أثار الحكمان الأخيران شيئاً من الشبهة فى نفوس البعض - خاصة وأننا نتحدث فى أدب الإسلام مع أعدائه والاسترقاق والقتل من الأمور التى تتنافى مع الرحمة والإنسانية.

ولدفع مثل هذه الشبهة نقول: إن الإسلام دين "حياة" بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فإذا ما افترضنا أنه بدعوى الرحمة والإنسانية ينبغى على المسلمين ان يتركوا أسراهم ويطلقوا سراحهم دون عقابهم بما يناسب جرمهم فى حق الإسلام والمسلمين لأصبح الأمر درباً من الطوابية الخيالية التى لا تصلح لانتظام حياة البشر على هذا الكوكب الذى أراد الله أن يكون حلبة صراع فسيحة بين الحق والباطل، ولا يعقل أن يترك المسلمون أسراهم ليعودوا للاعتداء عليهم، وقد حدث شئ من هذا القبيل فى عهد الرسول ﷺ حيث أطلق ص سراح "أبا عزة عبد الله الجمحى" الشاعر، أحد أسارى بدر، وذلك عندما توسل إلى الرسول ﷺ بأن يطلق سراحه قائلاً "إنى فقير ذو عيال فامنن على صلى الله عليك" فمن عليه الرسول ﷺ

وما هى إلا أن كانت "غزة أحد" حتى أسـر أبو عزة هذا مرة أخرى، وحين طلب من الرسول ﷺ أن يمنن عليه مرة أخرى قال ﷺ: "لا أدعك تمسح عارضيك، وتقول خدعت محمداً مرتين" ثم أمر به فضـربت عنقه، ويقال إن فيه قال رسـول الله ﷺ "لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين[١٨]".فشبهة قتل الأسرى أو استرقاقهم وتنافيها مع الرحمة والإنسانية اللتين يدعو إليهما الإسلام شبهة ساقطة لا أصل لها إلا إذا افترضنا أن الإسلام دين خيالى محض وحاشا لدين الله الخاتم الذى ارتضاه للبشر أن يكون من هذا القبيل.

إذن فلولى أمر المسلمين أن يقتل الرجال من الأسرى إذا رأى أن قتلهم يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين، ولا جُرم فى ذلك بل هو الجزاء الوفاق لمن أراد بالإسلام سوءاً، وأكد على ذلك بحمله للسلاح فى وجه المسلمين وعقد عزمه على قتلهم إن استطاع.

ولكن الذى لا خيار فيه لولى أمر المسلمين ولا لسواه هو أن يكون أسلوب القتل من التعذيب والتمثيل بحيث يتساوى المسلمون فى ذلك مع الأمم والشعوب غير المسلمة والتى أوردنا نماذج من معاملتها لأسراها فى بداية حديثنا عن أدب الإسلام مع الأسرى..

يقول الإمام الشافعى: "وإذا أسـر المسـلمون المشـركين فأرادوا قتلهم قتلوهم بضرب الأعناق، ولم يجاوزوا ذلك بقطع يد ولا رجل ولا عضو ولا مفصل ولا بقر البطن ولا تحريق ولا تغريق ولا شئ يعدو ما وصف"[١٩].

والأصل فى ذلك ما رواه أبو داوود فى سننه عن "شداد بن أوس" عن النبى ﷺ أنه قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شئ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح".

وقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى فى ذلك، فحينما أسر (سهيل بن عمرو)، قال عمر بن الخطاب رضـى الله عنه: يا رسـول الله انزع ثنيتيه! يدلع (يخرج) لسـانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال رسـول الله ﷺ لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهه[٢٠].

هذا عن أدب الإسلام مع الأسرى ينطق بالعدل ويتسم بالرحمة ويحرص على الهداية ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

---

[١٨] - البداية والنهاية – عماد الدين أبى الفداء بن عمر بن كثير ج ٣ ص ٣٣٢

[١٩] - كتاب "الأم" للإمام محمد بن ادريس الشافعى ج٤ ص ١٦٢

[٢٠] - كتاب "المغازى" للواقدى. تحقيق د. مارسون جونس ج ١ ص ١٠٥

٣- أدب الإسلام مع الرفيق

ذكرنا فى معرض حديثنا عن أدب الإسلام مع الأسرى أن لولى أمر المسلمين أن يمن عليهم أو يفاديهم أو يقتلهم أو يسترقهم، وأن حكمى القتل والاسترقاق يثيران فى النفس شيئاً من الشبهة، وقد رددنا على هذه الشبهة فى حكم القتل وأوضحنا الأدب الإسلامى الذى يلتزمه المسلمون مع قتلاهم من الأسرى، وفيما يلى نتناول حكم الاسترقاق وأدب الإسلام مع الرقيق باعتبارهم أسرى حرب، ذلك أن كثيراً من الغربيين قد اتخذوا من قضية الرق سبيلاً إلى الطعن فى الإسلام وإثارة الشكوك والشبهات حوله، بدعوى أنه يتناقض ومبدأ الحرية الإنسانية.

ونقرر بادئ ذى بدء أن الإسلام حينما أجاز توزيع الأسرى على مقاتليه وملكهم رقابهم على أن يقوموا بجميع نفقاتهم ويستخدمونهم فى أعمالهم الخاصة إلى أن يتسنى لهم دفع الجزية المطلوبة منهم أو يرق لهم قلب مسترقيهم فيحررونهم من الأسر، كان يتعامل مع أعدائه بالمثل.

ومن له أدنى اطلاع على التاريخ يعلم أن الروم فى الغرب والمجوس فى الشرق كانوا يتبعون هذا النظام (استرقاق الأسرى) فى حروبهم مع أعدائهم، بل إنهم "قد أسروا فعلاً من المسلمين واسترقوهم وباعوهم"[٢١] ولم يكن نظام الاسترقاق لدى الرومان يقتصر على أسرى الحرب فحسب ولكن دائرته كانت متسعة، حيث (كان مشروعاً لدى الرومان أن اقترف بعض الجرائم أو الإعسار فى سداد دين يهوى بالإنسان من مرتبة الحرية ويمسخه عبداً مهيناً[٢٢]".

ولم يكن الإسلام دين العزة والكرامة أن يقبل لاتباعه أن يكونوا رفيقاً فى أيدى أعدائهم دون أن يسمح لهم باسترقاق عدوهم - وإلا لتحولت الأمة الإسلامية مع مر السنين إلى أمة رقيق وافتقد الإسلام قوته بافتقاد رجاله وحماته.. إنه التوازن الذى أراده الله لانضباط الحياة.

ومن ثم كان على المسلمين أن يسترقوا أسراهم عملاً بقوله تعالى: الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿البقرة/١٩٤﴾ وقوله تعالى: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴿النحل/١٢٦﴾

---

[٢١] - مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية – المستشار على على منصور ص ١١٨

[٢٢]- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالى ص ٩٧

"ولو أنه جرى عرف الحرب، على ألا يسترق إنسان قط فى حرب أو سلم فإنه لا يحل الرق حينئذ، إذ يكون ذلك اعتداء وليس رداً للاعتداء وينطبق عليه النهى فى قوله تعالى: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴿البقرة/١٩٠﴾

فالإسلام لم يأت بالرق وإنما كان الرق قائماً قبل مجئ الإسلام وأولى بمثيرى الشبهات فى وجه الإسلام دين الرحمة والإنسانية والمبادئ السامية والأخلاق الرفيعة أن يراجعوا تاريخ الحضارة الرومانية التى تعتبر الركيزة الأساسية للحضارة الغربية الحديثة، وسيتضح لهم أن ما جاء به الإسلام فى شأن الرق كان كفيلاً بأن يمحو هذا النظام من الدنيا على المدى البعيد لا أن يرسخه ويقنن له كما كان الشأن عند الرومان قديماً، وكما حدث فى أوروبا فى أواخر القرن السابع عشر حيث صدر "القانون الأسود" لينظم أحوال الأرقاء فى المستعمرات.

وما نريد إيضاحه الآن هو أن نذكر أن الحرص على اتخاذ الأسرى فضلاً عن استرقاقهم من القضايا التى عالجها القرآن الكريم بحزم منذ الغزوة الأولى التى قاتل فيها المسلمون أعداءهم من الكفار "غزوة بدر الكبرى" فقد نزل الوحى يعاتب الرسول ﷺ وأصحابه فى التعجل فى أخذ الغنائم والأسلاب والأسرى بعبارات صريحة حازمة وذلك ليكون قتال المسلمين لأعدائهم خالصاً لله غير مشوب بأغراض دنيوية، قال تعالى: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿الأنفال/٦٧﴾ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿الأنفال/٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿الأنفال/٦٩﴾

ثم تترى الأيات من الله يأمر رسوله ﷺ بأن يطيب خواطر من استرق من الأسرى فى قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿الأنفال/٧٠﴾

ونقترب من القضية أكثر بطرح هذا السؤال: لماذا لم يكن الاسترقاق لصالح الدولة الإسلامية لا للأفراد المقاتلين؟

فنقول إنه إذا ما عرفنا أنه فى تلك الآونة لم تكن هناك خزينة للدولة الإسـلامية لتنفق منها على المقاتلين وأنه لم تكن هنالك على الطرف الآخر حكومات تهتم بفداء عموم أسراها لتحول بينهم وبين الاسترقاق، أو تقوم بتعويضات الحرب، إذا ما عرفنا ذلك كله اتضح لنا أن الاسترقاق كان حكماً إنسانياً رحيماً إذا ما قورن بالقتل مثلاً، وهو حكم عادل أيضاً لمن اشترك فى قتال المسلمين، بل لقد كان الأسرى أنفسهم يسعدون بهذا الحكم، وينظرون إليه على أنه فضيلة من فضائل الإسلام لعلمهم بأدب الأسلام مع الرقيق، ونذكر هنا أن رغبة أسارى بدر فى الحياة وحرصهم عليها وإيثارهم للفداء أو الاسترقاق على الموت، قد أوجد خلافاً فى الرأى بين أبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وذلك حينما طلب الأسرى منهما أن يكلما رسول الله ﷺ فيهم، فكانت إجابة أبى بكر لهم "لا آلوكم خيراً.." فيما كانت إجابة عمر لهم "لا آلوكم شراً" حيث كان يؤثر قتلهم خلاصاً منهم ومن شرهم ويذلَّ أهل الشرك، ويشفى صدور المسلمين بقتلهم معللاً رأيه بقوله: "لو قدروا على مثل هذا منا ما أقالونا أبداً".

والآن نذكر ما سبقت الإشارة إليه من أن الإسلام دعا إلى العتق وحث عليه من خلال ما سوف نذكره فى أدب الإسلام مع الرقيق

وأول ما يطالعنا من أدب الإسلام مع الرقيق هو تلك المعاملة الحسنة التى أوجبها الإسلام على معتنقيه وأكد عليها الرسول ﷺ فى أكثر من موضع وبأكثر من أسلوب، فقد جعل الله البر بالأسير وإطعامه ومراعاته صفة ملازمة لعباد الله الأبرار.. قال تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ، يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿الإنسان ٥/٨﴾

كما جعل الله تبارك وتعالى الإحسان إليهم بالعتق من أهم القربات التى يتقرب بها المسلم إلى الله، وتنجيه من عذاب الآخرة قال تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿البلد/١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿البلد/١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿البلد/١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿البلد/١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿البلد/١٥﴾

كما جعل سبحانه وتعالى العتق كفارة لكثير من الجرائم والآثام والحنث فى بعض الأيمان، فضلا عن أن الإسلام شرع نظام المكاتبة وحث المسلمين على مساعدة الرقيق بالمال حتى يتخلصوا من رقهم - قال تعالى: وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿النور/٣٣﴾

كما جعل الشارع عتق الرقاب من مصارف الزكاة، قال تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة/٦٠﴾ وحث المسلمين على تشجيع الرقيق المُكاتب وإعطائه ما يستعين به على فك رقبته، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يشترى الرقيق ويعتقهم.

هذا عن أدب القرآن الكريم فى شأن الرق وأهله، أما أدب النبوة وهو التطبيق العملى للقرآن الكريم فأكثر من أن يحصر فى سطور.

وأول ما يطالعنا فى الأدب النبوى مع الأسرى وصية الرسول ﷺ لصحابته منذ الغزوة الأولى "استوصوا بالأسرى خيراً"، ثم تتعدد أقواله ﷺ لتفصيل هذا الخير فيما يلى:

أنه كان ﷺ يأمر صحابته بحُسن معاملتهم وينهاهم عن تعذيبهم وإهانتهم نجد ذلك فى قوله ﷺ : "من يلائمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تكسون ومن لا يلائمكم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله"[٢٣].

وكما كان ﷺ يحث صحابته على مساواة مسترقيهم بهم فى المأكل والملبس كان يحثهم كذلك على معاونتهم فيما يكلفونهم به من أعمال تفوق طاقتهم، وفى هذا يقول ﷺ "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه فليعنه"[٢٤].

---

[٢٣] - سنن أبى داوود: كتاب الأدب ج٣ ص ٣٦٠

[٢٤] - المرجع السابق

وكان ﷺ يحسن معاملة ذوى العلم والمكانة من رقيق الأسرى وقد ذكرنا أن النبى ﷺ أمر بفك أسر العلماء من أسرى بدر مقابل تعليم كل منهم لعشرة من أبناء المسلمين مما علمهم الله، وكانت القراءة والكتابة من الأمور الهامة آنذاك فعلمهما الأسرى لهم وبها فك أسرهم.

أما إكرامه لمن كان ذا مكانة فى قومه قبل الأسر

فنذكر أنه ﷺ أعطى جويرية بنت الحارث - التى وقعت فى الأسر وكانت من نصيب ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها على نفسها - ما تحتاج إليه من المال لدفع ما تعاقدت عليه مع مولاها (ثابت) ثم تزوج منها ﷺ بعد انعتاقها، وحينما علم الناس[٢٥] بهذا قالوا لقد أصبح بنو المصطلق أصهار النبى ﷺ وسارعوا إلى تحريرهم من الأسر كما قام ﷺ بإطلاق سراح ابنة حاتم الطائى نظراً لما كان عليه أبوها من مكارم الأخلاق.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يلتزمون بأوامر الرسول ﷺ ووصاياه فى أمر الرقيق إلى الحد الذى كان يدفع البعض منه إلى عتقهم خشية التقصير فى تنفيذ وصايا الرسول ﷺ بشأنهم.

فأين هذه المعاملة الرقيقة وتلك الآداب الرفيعة من التعسف والاضطهاد والتنكيل الذى يلقاه الأسرى اليوم من قبل الأمم التى تدعى الحضارة والمدنية وتمقت الرق وتحاربه، أين هذا مما كان يحدث فى القرن الثامن عشر حيث كان يقوم الأوروبيون بحشد الآلاف من الأفارقة السود من غرب أفريقيا ونقلهم إلى الأمريكتين لبيعهم كرقيق مستذل مستعبد، ويعاملونهم معاملة الأنعام..!

ورغم أن قانون الرق قد تم القضاء عليه وعلى تجارته فى القرن العشرين إلا أن ما يلقاه الزنوج حتى اليوم فى كثير من دول العالم المتحضر يؤكد على أن ما ألغى من الرق هو اسمه وحسب أما المعاملة فتشهد أن الرق قائم حتى اليوم، يقول (هارى هايورد) فى كتابه (تحرير الزنوج) مؤكداً ذلك: "لقد انتهى الرق بوصفه امتلاكاً للعبيد ولكنه باق بوصفه نظاماً طبقياً يجعل الملونين فى مركز أدنى من البيض بتشريعات وإجراءات ظالمة[٢٦].

وكل ما سبق يؤكد أن ما يدعيه مثيرو الشبهات فى وجه الإسلام فى أمر الرق والرقيق إن هو إلا ستار يوارون خلفه سوآتهم عملاً بالمثل العربى: "رمتنى بدائها وانسلت".

---

[٢٥]- السيرة النبوية – هشام الأنصارى ج٣ ص ٢٩٤

[٢٦]- مقارنات بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية.. المستشار على على منصور ص ١٢١

هذا هو الرق فى الإسـلام وتلك آدابه التى شـرعها الله وطبقها الرسـولﷺ وصـحابته خير تطبيق فضـربوا بذلك المثل الأعلى فى الإنسـانية والرحمة، ومن يطلع على تاريخ الإسـلام يعلم كم كان الرقيق يتمتعون فى ولاية مسـترقيهم بكافة حقوقهم الإنسانية. الأمر الذى شهد به كثير من المنصفين من غير المسلمين. نذكر فى ذلك قول المستشـرق "فان دنبرغ": "لقد وضـعت للرقيق فى الإسـلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه محمد ﷺ وأتباعه نحوهم من الشعور الإنسانى النبيل. ففيها تجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المنافضـة الأسـاليب التى كانت تتخذها إلى عهد قريب شـعوب تدعى أنها تسـير فى طليعة الحضـارة.. نعم إن الإسـلام لم يلغ الرقيق الذى كان شـائعاً فى العالم ولكنه عمل كثيراً على إصـلاح حاله، وأبقى حكم الأسير ولكنه أمر بالرفق به"[٢٧].

وليس لنا من تعليق على هذه الشـهادة سـوى قول الشـاعر: ومليحة شـهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء.

إن ما عرضـناه من أدب الإسـلام مع الأعداء واتضـح لنا من خلاله ما ينطوى عليه هذا الدين من رحمة وعدالة وإنسـانية وهداية تمتد لتشـمل الأعداء الذين يحرصون على قتل المسلمين وتدميرهم يجعلنا نتساءل مع السائلين "ترى لو ملك المسـلمون اليوم من القوة، ما تملك تلك الدول العظمى من قوة أكانت تلك القوة تتحول فى أيديهم إلى مثل هذا البلاء الذى يهلك الحرث والنسل، والذى تسوقه تلك الدول إلى من لا يملكون شيئاً من أدوات الإهلاك والتدمير؟؟[٢٨]"

إن خلاص البشـرية من ويلاتها وآلامها لن يتأتى إلا إذا عادت إلى الله وتشـبعت بروح الإسـلام دين المحبة والهداية والسـعادة دين الرحمة والطمأنينة للعالمين، الأمر الذى يوجب على أمته أن تنهض من كبوتها وتنفض عنها غبار الفرقة والتشـتت، وتطرح خلف ظهرها عوامل الضـعف والتخلف والتناحر، لتعيد إلى الإنسـانية الحيرى اطمئنانها وسـعادتها، فتلك رسـالتها ومسـؤوليتها التى حملها الله إياها وسـائلها عنها يوم الوقوف بين يديه، قال تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿الحج/٧٨﴾ .

[٢٧]- تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى للأستاذ حسن محمد حسن ج ١ ص ١٩١
[٢٨] - الحرب والسلام فى الإسلام.. الأستاذ عبد الكريم الخطيب

فهل هى فاعلة؟؟ ذلك ما ندعو الله به وما هو على الله بعزيز

٤ـ تأمين رسل العدو

قد يأتى رسول من قبل العدو فى شأن صلح أو غيره، مما فيه تخفيف شر الحرب، فيقرر الإسلام ضرورة تأمينه وعدم التعرض له بالأذى حتى يبلغ الرسالة ويعود من حيث أتى، فقد بعث مسيلمة رسولين إلى النبى ﷺ فسمع منهما كلاماً لم يرضه، ولكنه قال لهما: "لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما".

٥ـ سماحة الإسلام مع المغلوب

والإسلام إذا انتصرت جيوشه لا يقول: "ويل للمغلوب" لأنه يحارب لمعنى إنسانى عادل، من أجل ذلك كان ما فعله النبى ﷺ مع قريش بعد فتح مكة، عملاً ناطقاً بسماحة الإسلام فى أجلى صورها، فقد كانت كل الظروف مهيأة أمام المسلمين لتحقيق نصر عسكرى ساحق على قريش، ولو كان هم رسول الله ﷺ أن يفوز بمثل هذا النصر دون أدنى اعتبار لما بعد النصر، لما نفذ ذلك المخطط البارع الذى فتح به مكة بغير قتال، وإذا كان شأن المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدوافع الغيظ والانتقام والغرور بالقوة، فإن الرسول القائد ﷺ - رغم كل ما فعلت قريش ضد الإسلام والمسلمين - لم يفعل شيئاً من ذلك بل كان كل همه وكل قصده أن يؤلف قلوب المشركين ويجعلها تقبل على الإسلام الذى هو دين السلام، ولذلك قال لهم: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء"!!

٦ـ رعاية أسر الشهداء والمصابين

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها زوج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قالت: دخل على رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال: "ائتنى ببنى جعفر" فأتيته بهم، فشممهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شئ؟ قال: "نعم أصيبوا هذا اليوم" قالت: فقمت أصيح واجتمع إلىّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: "لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم". (رواه الإمام أحمد وابن ماجه).

هكذا وبمثل هذا الوفاء كانت مواساته ﷺ لأسر الشهداء وأبنائهم، وبذلك يقرر عليه الصلاة والسلام أن من أهم الواجبات التى تنهض بها الأمة أفرادا وجماعات وحكومة وقت الحرب، رعاية أسر المقاتلين والشهداء والمصابين، وأن من يبذل دمه ونفسه من أجل دينه ووطنه لابد ان ترعى أسرته وفاء له وتحقيقاً للتكافل معه، وحتى يكون المرابطون والمجاهدون فى انتباه دائم إلى أعدائهم، غير مشغولين بأهليهم وأولادهم ومتاعبهم، يتعين على باقى الأمة أن يخلفوهم فى أهليهم وأموالهم بخير، مراقبين فى كل ذلك ربهم، طالبين الأجر منه وحده، لينالوا جزاء الغازى فى سبيل الله.

فعن زيد بن خالد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً فى سبيل الله فى أهله بخير فقد غزا" (رواه الشيخان - ومن خلف غازياً يعنى قام بتدبير أموره حتى يعود).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: "قال رسول الله ﷺ أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أننى أرى امرأة تبادرنى فأقول لها: مالك، ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام" (رواه البخارى ومسلم).

ويمتد الوفاء إلى أبناء الشهداء تمجيداً وتنويهاً بفضل آبائهم ودورهم فى الجهاد فى سبيل الله، فعن عامر الشعبى قال: "كان ابن عمر رضى الله عنهما إذا حيا عبد الله بن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين" (رواه البخارى والنسائى) ففى حديث رواه عبد الرازق عن ابن المُسيب مرسلاً قال الرسول ﷺ: "إن الله تعالى أبدله (أى جعفر بن أبى طالب) جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء" (وأبدله أى أثابه جناحين عوضاً عن قطع يديه فى غزوة مؤتة).

الفتح مثال كامل لحروب الإسلام الفاضلة

وإذا كان من شأن المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدافع الغيظ والتشفى والانتقام والغرور بالقوة، فإن الرسول القائد ﷺ - على الرغم مما فعلت قريش ضد الإسلام والمسلمين - لم يفعل شيئاً من ذلك، بل كان كل همه وكل قصده، أن يؤلف قلوب المشركين، ويجعلها تقبل على الإسلام الذى هو دين السلام.

لقد استسلمت قريش، التى يعرف عليه الصلاة والسلام فيها من ائتمروا به ليقتلوه، ومن عذبوه وأصحابه من قبل، ومن قاتلوه فى بدر وفى أحد، ومن حاصروه فى غزوة الخندق، ومن ألبوا عليه العرب جميعاً، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إرباً إرباً لما توانوا فى ذلك لحظة!.. لقد أصبحت قريش فى قبضته عليه الصلاة والسلام وتحت قدميه، أمره نافذ فى رقابهم، وحياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه، وفى سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها فى رجع البصر..

لكن رسول الله ﷺ، ليس بالرجل ولا بالقائد الذى يعرف العداوة أو يريد أن تقوم بين الناس، وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر أو بالذى يرفع شعار "ويل للمغلوب".. لقد مكنه الله من عدوه، فماذا أفعل؟

لقد نهض عليه الصلاة والسلام والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد الحرام، فطاف بالبيت العتيق، وطهره من الأصنام، ثم وقف على باب الكعبة وقريش تنتظر ماذا يصنع، وقال: "يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟".

قالو: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم..

قال: "فإنى أقول كما قال يوسف لأخوته، لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا، فأنتم الطلقاء".

وكانت أعظم الآثار الاستراتيجية لذلك أن قريشا لم تقبل على الإسلام فحسب، بل حملت رايات الجهاد فى سبيل الله، وتحولت اتجاهاتها من أشد الناس عداوة للإسلام، إلى أحرص الناس على رفع راية الجهاد فى سبيله، وتلك صورة رفيعة انفرد بها الإسلام، وليس فى التاريخ ما يتسامى إليها، وليس ذلك فحسب بل كان من عرب شبه الجزيرة قادة عسكريون أفذاذ قدر لهم أن يكونوا من أعظم القادة العسكريين فى التاريخ.

وتحويل اتجاهات البلاد المفتوحة من العداء للإسلام إلى اعتناقه، بل والجهاد فى سبيله، أثار دهشة المشير مونتجمرى وهو يسجل تاريخ الحروب فقال: "من العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية فى فتح أسبانيا بين عامى ٧١٠-٧١٣ كانت مُشّكلة من الليبيين والتونسيين"[٢٩].

[٢٩]- فيكونت مونتجمرى: الحرب عبر التاريخ ج ٢ ص ١٨٨ ترجمة عبد الله النمر

ولو عرض تاريخ الصراع بين المسلمين والمشركين، والظروف والأحوال الاستراتيجية وموقف الطرفين قبل الفتح على مجموعة من الخبراء فى فن الحرب، لقالوا لنا: "إن لدى المسلمين فرصة مواتية لتحقيق نصر عسكرى ساحق على أعدائهم".. وسوف يصيب هؤلاء الخبراء قدر كبير من الدهشة إذا ما عرفوا أن الرسول ﷺ قرر أن يفتح مكة "بلا قتال"، فبنى خطته وأدار المعركة على هذا الأساس بحيث تم له الفتح بلا قتال يذكر.

ولو عرف هؤلاء الخبراء جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية ووجهة نظرها فى أسباب الحرب وأهدافها لما أصبتهم الدهشة، فهذه العقيدة، بحكم انبثاقها من القرآن الكريم والسُنة النبوية المطهرة القولية والفعلية والتقريرية، لها من الأصالة ما للدين نفسه من أصالة، والنظام الشامل الذى قررته للحرب يتسم بالرحمة والعدل، والنبل فى المقاصد والأهداف:

(١) "فالجهاد" وهو جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية، فضيلة إنسانية عليا، والباعث إليه فضيلة أيضاً، إذ هو إعلاء كلمة الله ورد الاعتداء، يقول الله تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿الحج/٧٨﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴿البقرة/١٩١﴾ .

(٢) "والردع الدفاعى" هو النظرية الاستراتيجية للحرب فى الإسلام، وهو يتمثل فى قوله تعالى: وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿الأنفال/٦٠﴾ وفى قول الرسول القائد ﷺ: "نصرت بالرعب مسيرة شهر" (رواه البخارى).

فالهدف من إعداد القوة فى الإسلام ليس العدوان أو الاغتصاب أو القهر، ولكن هو الردع عن طريق "إيقاع الرهبة" فى قلوب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم، كما يفهم من حديث الرسول ﷺ "نصرت بالرعب" أن إظهار القوة للأعداء وإخافتهم، يحقق النصر عليهم ويؤدى إلى تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية أكثر من أية وسيلة أخرى، وبذلك تنطوى استرتيجية الردع الإسلامية على أرفع المعانى السلمية والإنسانية وحقن الدماء.

(٣) وتاريخ الصراع بين المسلمين وأعدائهم فى عصر النبوة يشهد لهم بتطبيق استراتيجية الردع بنجاح كبير، فمن بين ثمان وعشرين غزوة قادها الرسول القائد ﷺ نفسه، لم ينشب القتال إلا فى تسع منها فقط، أما الغزوات الباقية (١٩ من ٢٨) فقد حققت أهدافها بغير قتال، لأن الأعداء فضلوا ألا يواجهوا قوة المسلمين تحسباً لنتائج تلك المواجهة.



الوفاء بالعهود والمواثيق
فى الإسلام

الوفاء بالعهود والمواثيق
فى الإسلام

موقف القرآن الكريم من العهود:

قال سبحانه وتعالى: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴿الإسراء/٣٤﴾

وقال سبحانه وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿المائدة/١﴾ وقال تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿المؤمنون/٨﴾ – وقال تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿البقرة/٤٠﴾ ، وقال سبحانه وتعالى: أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿البقرة/١٠٠﴾ وقال سبحانه وتعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿المعارج/٣٢﴾ – وقال سبحانه وتعالى: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿النحل ٩٢/٩١﴾ – وقال سبحانه وتعالى: أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿الرعد١٩/٢٠﴾ ،

ويقول الحق فى كتابه الكريم: وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿ الرعد/٢٥ ﴾، ويقول الحق: الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ البقرة/٢٧ ﴾ – ويقول الحق سبحانه: وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿ التوبة ٣/٤ ﴾، وقال سبحانه وتعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ الأنفال/٧٢ ﴾ – ويقول سبحانه وتعالى: لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿ البقرة/١٧٧ ﴾، ويقول الله تعالى: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿ الأنفال/١٢ ﴾، ويقول سبحانه وتعالى: بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ التوبة/١ ﴾.

موقف السُنة النبوية من العهود

قال ﷺ "المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم، لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد فى عهده من أحدث حدثاً فعلى نفسه ومن أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين".

وقال عليه الصلاة والسلام: "من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء".

وقال: "من آمن رجلاً على نفسه فقتله فأنا برئ من القاتل وفى لفظ أعطى لواء عذار".

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر" (متفق عليه).

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: "لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة، يرفع له بقدر غدرته".

عن ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهم قالوا: قال النبى ﷺ : "لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال هذه غدرة فلان" (متفق عليه).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: "قال الله تعالى ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره" (رواه البخارى).

ويقول الرسول ﷺ: "إن حسن العهد من الإيمان".

وقال ﷺ: "ومن خرج على امتى يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى بعهد ذى عهدها، فليس منى ولست منه".

حرمة العهود والمواثيق فى الإسلام

وللمواثيق والعُهود حرمتها فى الإسلام فى قوله تعالى: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿النحل/٩١﴾ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿النحل/٩٢﴾ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿النحل/٩٣﴾ وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿النحل/٩٤﴾ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿النحل/٩٥﴾ .

وقد جاء إلى النبى ﷺ - وكان صلح الحديبية قد عقد لتوه - أبو جندل بن سهيل بن عمرو، يريد اللحاق بالمسلمين والسير معهم، فلما رأى سهيل ولده ضرب وجهه، وأخذ يجره يبتغى رده إلى صف قريش، وأبو جندل يصيح: "يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يقتلوننى فى دينى" ولم ير النبى ﷺ إلا أن يصبر أبو جندل، وقال: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وأنا لا نغدر بهم.

ولما ذكر بعض المسلمين نية المشركين على الغدر قال: "وفوّا لهم، ونستعين بالله عليهم" وكان عليه الصلاة والسلام يقول: "ألا أخبركم بخياركم، خياركم الموفون بعهدهم".

والوفاء واجب على المسلمين وإن بدت نية الغدر من الآخرين فى قوله تعالى: وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿الأنفال/٦٢﴾ .

ويرى عبد الرحمن عزام فى كتابه "الرسالة الخالدة" إن "حُرمة العهود فوق حرمة الدين، فقد جعلت الشريعة حق الميثاق فوق حق الدين نفسه، كما حرمت نصر المسلم للمسلم على من بيده ميثاق وهو غير مسلم،

يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿الأنفال/٧٢﴾ .

فإذا أجبر المسلمون على نقض العهد، لتبين الخيانة، فعليهم أن ينذروا بذلك ويعلنوه، وليس لهم أن يفاجأوا القوم بإجراء يترتب على نقض العهد، ما لم يعلم القوم بنقضه، وأن المسلمين فى حل منه لقوله تعالى: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴿الأنفال/٥٨﴾ .

ولا ينقض المسلمون عهداً ما لم يبدأ الآخرون بنقضه، أو يكون من هؤلاء الآخرين ما ينقضه، كمظاهرتهم للعدو على المسلمين فى قوله تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿التوبة/٤﴾ ، وليس لهم أن ينقضوا فى غير ذلك عهدا عاهدوا الله عليه لقوله تعالى: وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿النحل/٩١﴾ .

وقد جرى المسلمون على ذلك حتى مع من لا عهد لهم، فالوفاء بالعهد من مقررات الإسلام الأصلية، يسرى على الأفراد كما يسرى على الجماعات، لا يقتصر على عهود السياسة ومواثيقها، وإنما يمتد إلى كل ما عداها مما يستوجب الوفاء ويقتضيه من عهود، والعهد لله، والذمة للرسولﷺ ، فيقال: عهد الله، وذمة رسول الله ﷺ ، لذلك سمى المخالفون من أهل الكتاب بالذميين، أى لهم ذمة رسول الله.

وليست العهود والمواثيق فى الإسلام إلا للخير، فلا عهد على ظلم، ولا ميثاق على بغى أو عدوان، لقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿المائدة/٢﴾

وأقر الإســـلام ما كان من ذلك فى الجاهلية، فمن محامد العرب قبل الإســـلام الوفاء بالعهد، وتأمين المســتجير، ومن ذلك حلف الفضــول الذى عقدته قريش فى الجاهلية، لرد المظالم وإنصــاف المظلوم من ظالمه، وكان النبى ﷺ ممن حضــروا الاجتماع، وســنه إذ ذلك خمس وعشــرون ســنة، فكان إذا ذكر "حلف الفضــول" يقول: "لقد شـهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول، أما لو دعيت إليه فى الإسلام لاجبت، وما يزيده الإسلام إلا شدة".

وليس فى نقض العهود فى الإسلام ما يبرر ظلم من نقض، أو ينفى العدالة عنه، وهى من مقررات الإسـلام، لقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَــنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿المائدة/٨﴾.

فالوفاء - كما نرى - هو شــعيرة الإســلام الكبرى فى كل ما يربط البشــر من معاملات وعلاقات، وفى كل ما يربط العبد بخالقه، وبه يتميز الإســلام على غيره من عهود القانون الدولى ومواثيق الأمم، فليس لميثاق ولا لعهد أو اتفاق بين الدول ما يحميه غير القدرة على الوفاء.

وصية أبو بكر لقائد الجيش الإسلامى

كتب أبو بكر ليزيد بن أبى سفيان، قائد المسلمين فى جبهة فلسطين يقول له:

"إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك، فإن أحســنت رددتك إلى عملك وزدتك، وأن أسأت عزلتك!!

فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك.

وأن أولى الناس بالله أشــدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشــدهم تقرباً إليه بعمله.

وقد وليتك عمل خالد بن سعيد بن العاص الوالى السابق فإياك ونخوة الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها.

وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وأبدأهم بالخير وعدهم إياه..

وإذا وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا..

وأصلح نفسك يصلح الله لك الناس، وصل الصلاة لأوقاتها، باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها.

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون.

ولا ترينهم - حقيقة جيشك - فيروا خللك، ويعلموا علمك.

وأنزلهم فى ثروة عسكرك، وأمنع من قبلك من محادثتهم.

وكن أنت المتولى لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط أمرك؟

وإذا استشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة.

واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار.

وأكثر حرسك وبدلهم فى عسكرك، وأكثر مفاجآتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك.

فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه فى غير أفراط.

وأعقب بينهم بالليل والنهار، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرها لقربها من النهار.

ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجن فيها، ولا تسرع إليها.

ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم

ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العابثين.

وجالس أهل الصدق والوفاء، وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس.

واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر.

وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له".

ومن توجيهات عمر للقائد والجنود

كتب عمر بن الخطاب إلى القائد سعد بن أبى وقاص يقول:

"بســـم الله الرحمن الرحيم - أما بعد - فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب.

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشـــد احتراســـا من ذنوبكم منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصــر المســلمون بمعصــية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدتهم.

فإن اســتوينا فى المعصــية كان لهم الفضــل علينا فى القوة، والا ننصــر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

فاعلموا أن عليكم فى ســيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاســتحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله.

ولا تقولوا: أن عدونا شر منا فلن يسلط علينا.

فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم! كما سلط على بنى إسرائيل - لما عملوا بمعاصى الله - كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا.

وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم.

وترفق بالمسـلمين فى سيرهم، ولا تجشـمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصـر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم - والسفر لم ينقص من قوتهم - فإنهم سائرون إلى عدون مقيم، حامى الأنفس والكراع.

وأقم بمن معـك فى كـل جمعـة يومـا وليلـة، حتى تكون لهم راحـة يحبون بهـا أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم.

ونح منازلهم عن قرى أهل الصــلح والذمة، لا يدخلها من أصــحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً.

فإن لهم حرمة وذمة، ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها.
فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.
وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليكم أمرهم.
وليكن عندك من العرب - أو من أهل الأرض - من تطمئن إلى نصحه وصدقه.
فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وأن صدقك فى بعض.
والغاش عين عليك وليس عين لك...".

بيان عن الغزوات فى صدر الإسلام

قتلى المسلمين	قتلى خصومهم	اسم الغزوة	ملاحظات
		١- ودان أو الابواء	لا قتال فيها
		٢- بواط	لا قتال فيها
		٣- بدر الأولى	لا قتال فيها
		٤- العشيرة	لا قتال فيها
٨	٧٠	٥- بدر الكبرى	
		٦- بنو سليم	لا قتال فيها
		٧- بنو قينقاع	لا قتال فيها
٢		٨- السويق	
		٩- امرا وغطفان	لا قتال فيها
٧٠	٢٣	١٠- أحد	
		١١- حمراء الأسد	لا قتال فيها
		١٢- بنو النضير	لا قتال فيها
		١٣- ذات الرقاع	لا قتال فيها
		١٤- بدر الثالثة	لا قتال فيها
		١٥- دومة الجندل	لا قتال فيها
		١٦- المريسيع	لا قتال فيها
٦	٣	١٧- الخندق	
١		١٨- بنو قريظة	قتل كل رجالها اليهود
		١٩- بنو لحيان	لا قتال فيها
١		٢٠- ذو قرد	
١٥	٩٣	٢١- خيبر ووادى القرى	
٢	٢٨	٢٢- فتح مكة	

١٢	مجهول	٢٣- حنين والطائف	
		٢٤- تبوك	لا قتال فيها
ـــــ	ـــــــ		
١١٧	٢١٧		

بيان عن السرايا

وهذا بيان آخر بأسماء السرايا التى سيرها وعددها وعدد القتلى فيها:

قتلى المسلمين	قتلى خصومهم	اسم السرية	ملاحظات
		١- سرية حمزة	لا قتال فيها
		٢- سرية عبيدة بن الحار	لا قتال فيها
		٣- سرية سعد بن أبى وقاص	~~~~
	١	٤- سرية عبد الله بن جحش	
		٥- سرية زيد بن حارثة	لا قتال فيها
٥		٦- سرية الرجيع	تبشير بالدين
٦٩		٧- سرية بئر معونة	~~~~
		٨- سرية عكاشة بن محصن الاسدى	لا قتال فيها
٩		٩- سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصة	~~~~
		١٠- سرية أبى عبيدة إلى غطفان	~~~~
		١١- سرية زيد بن حارثة إلى بنى سليم	~~~~
		١٢- سرية زيد بن حارثة إلى العيص	~~~~
	٢	١٣- سرية زيد بن حارثة إلى جذام	~~~~
		١٤- سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل	
		١٥- سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد	
		١٦- سرية عمر بن الخطاب إلى هوازن	~~
مجهول العدد		١٧- سرية أبى بكر إلى بنى كلاب	~~~~
		١٨- سرية بشير بن سعد إلى بنى مرة	~~~~
٨٣	٣		

قتلى المسلمين	قتلى خصومهم	اسم السرية	ملاحظات
		١٩- سرية غالب الليثى إلى نجد	لا قتال
		٢٠- سرية بشير بن سعد إلى غطفان	

٤٩		٢١- سرية الاجزم إلى بنى سليم
		٢٢- سرية غالب الليثى إلى كديد
		٢٣- سرية غالب الليثى إلى بنى مرة
		٢٤- سرية شجاع بن وهب إلى هوازن
١٤		٢٥- سرية كعب الغفارى إلى ذات اطلاح
١٢		٢٦- سرية مؤتة
		٢٧- سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل
		٢٨- سرية أبى عبيدة إلى سيف البحر
مجهول	مجهول	٢٩- سرية أبى قتادة إلى نجد
		٣٠- سرية أبى قتادة إلى اضم
	مجهول	٣١- سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة
		٣٢- سرية عينية بن حصن إلى تميم
		٣٣- سرية خالد بن الوليد إلى نجران
		٣٤- سرية أسامة بن زيد إلى فلسطين
١٥٨	٣	

هذا هو بينا السرايا وعددها ٣٤ وهنالك من يضيف إليها سرايا أرسلت لأغراض خاصة كهدم الأوثان والأصنام فيجعلها ٣٨ كما أن هنالك من يزيد فى الغزوات ويجلعها ٢٧ أو ينقصها إلى ٢٦.

عدد قتلى المسلمين فى جميع المعارك

فمن هذا الإحصـــاء يتبين أن عدد الذين قتلوا من المســـلمين فى جميع الغزوات التى غزاهـا النبى وعـددهـا ٢٥ غزوة لم يزد عن ١١٨ قتيلا كمـا أن عـدد قتلى السرايا بلغ ٢١٧ يخرج منهم ٧٤ وهم قتلى الرجيع وبئر معونة وقد أسلوا للتبشير لا لغزو ولا لفتح فلا يبقى سوى ١٤٣ قتيلا وبإضـافتهم إلى مجموع قتلى الغزوات يبلغون ٢٥٨ قتيلا وهم كل ما فقده المســلمون فى ٥٨ بعثا عســكريا ســيروها فى خلال ٩ سنوات وأتموا فيها فتح الحجاز واليمن وجانبا من الشام.

عدد قتلى غير المسلمين

ويدل هذا البيان على أن قتلى خصـوم المسـلمين ومنا فسـيهم لم يزد فيما وصـل إليها عن ٢٢٠ منهم ٢١٧ فى الغزوات و ٣ فى الســـرايا يخرج منهم قتلى اليهود فى خيبر وعددهم ٩٣ فلا يبقى ســوى ١٢٠ قتيلا يضـــاف إليهم مثلهم فى المعارك التى لم يذكر عدد القتلى فيها وهو أكبر تقدير فيبلغ المجموع ٢٤٠ قتيلا سقطوا فى خلال تسع سنوات، ولا يدخل فى هذا الإحصاء قتلى بنى قريظة اليهود.

ويســـلم الباحث المنصـــف بعد إطلاعه على هذا البيان وبعد إطلاعه على عدد الغزوات والســـرايـا والبعوث وعدد قتلى الفريقين بأنه لم يكن هنالك قتال بالمعنى المفهوم لهذه الكلمـة ولا إرهاب ولا إرهاق وأن الســـيف لم يكن العامل الوحيد فى فتح الحجاز واليمن وبعض أطراف الشــام، وإنما هو تضـــامن المســلمين واتحادهم

والتفافهم حول نبيهم. وإتباعهم تعاليمه، وحسن نظامهم الداخلى، وشدة إيمانهم، وسمو الغاية التى يعملون لأجلها، ويستميتون فى سبيلها، يقابل هذا تفرق كلمة خصومهم وتشتتهم وعدم وجود روابط متينة تربطهم واعتقاد أكثرهم بعدم صحة العقيدة التى يدافعون عنها وشتان ما بين الفريقين.

القرآن الكريم وحقوق الإنسان

القرآن الكريم وحقوق الإنسان

إن لحقوق الإنسـان فى القرآن الكريم وشـريعته الإسـلامية طابع الضـرورة المؤسـس على العقيدة، أى طابع الالتزام الناشـئ بمحض الإيمان، وهو طابع يرتكز على ضمان معنى الإنسانية للإنسان.

هذه الحقوق المسـتقرة على شـكل مبادئ أسـاسـية مصـونة فى الشـريعة الإسـلامية مبرأة فى طبيعة الإسـلام العملية عن أن تكون مجرد "نصـوص نظرية" أو "مسكنات دستورية" تقبل المناقشـة ولا تقبل التنفيذ، بل كانت هذه الحقوق مبادئ وحقائق سائدة، قام عليها الواقع الحى وقامت به، ولا تزال قابلة فى أى واقع جـديـد للتطوير فى التطبيق العملى لكى تواجـه وتشـمـل كـل التطورات التى تسـفر عنها الأبحاث التشـريعية الحديثة، ومتطلبات الحياة الجديدة فى مراحلها المختلفة.

وفى هذا المجال لا يكفى مجرد القول بأن الفقه الإسلامى قد أسـهم بصـورة بارزة فى الحضـارة العربية الإسـلامية، وفى التوسـع التطبيقى لحماية حقوق الإنسـان بعد أن نظر فى ذلك بالنسبة للإنسـانية قاطبة، وذلك لأن هذا الإسـهام العلمى العظيم من الفقهاء المسـلمين لم يكن مجرد واقعة تاريخية فى سـيرة الحضـارة العربية الإسـلامية يفخر بها كل مسـلم فى العصـر الحاضـر، وإنما كان دلالة بكل ما قدمه من أبحاث وإضـافات تأثرت بها ثقافة العالم التشـريعية فى الماضـى على أن الشـريعة الإسـلامية القرآنية لا تزال وسـتبقى قادرة على التـأثير فى تطوير المبـادئ القـانونيـة التـى تحكم حقوق الإنسـان فى المجتمع الإنسانى بأسره.

ومن المهم إظهار الصـفات العامة للشـريعة الإسـلامية حيث يتأكد لنا أنها تتفق مع تطلعات الإنسـان فى سـائر أنحـاء العالم. كما تتأكد قابليتها الكاملة للتطبيق على المسـتوى العالمى لحقوق الإنسـان. ذلك لأن الشـواهد التاريخية والحضـارية تقطع بأن رغبات وتطلعات المسلمين الإنسـانية لا تختلف إن لم تكن أعظم من رغبات وتطلعات الشـعوب الأخرى، ولأن الشـريعة الإسـلامية فى نصـوصـها الدائمة وفى طورها العملى كانت فى طليعة الشـرائع الدينية، والنظم القانونية من حيث الاعتراف بكرامة الإنسان، وبالحقوق المتساوية لكل فرد، ومن حيث الالتزام بـالضـمانات التى لا يمكن التنازل عنها لحفظ آدمية الإنسان وكرامته.

وإذا اسـتعرضـنا أهم المقومات الوضـعية التى لا تسـتند إلى شـريعة إلهية، والتى تقوم عليها الآن مبادئ القانون الدولى المعاصـر لحقوق الإنسـان فإننا نجد أن الشريعة الإسلامية قد سبقتها من حيث:

١- الزمن.. فالإسلام سابق بالمسافة الزمنية بين أوئل القرن السابع وأواخر القرن الواحد والعشرين.

٢- إحكام النص وشموله فى الشريعة الإسلامية فوق ما وصلت إليه أحدث صياغة لحقوق الإنسان.

٣- الالتزام العملى فى التنفيذ من قبل الدولة والحكام بدافع سلطان الشريعة فى ذاتها على المجتمع.

لقد بدأت فى النصف الثانى من القرن العشرين تظهر أهم مقومات القانون الدولى الوضعى بخصوص حقوق الإنسان ممثلة فى بعض نصوص ميثاق الأمم المتحدة، وبعض القرارات التى أصدرتها هذه المنظمة الدولية، ثم الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، ثم بعض النظم القانونية الدولية الإقليمية لحقوق الإنسان التى اعتمدتها الأمم المتحدة سنة ١٩٦٨ م وذلك بجانب اتفاقيات دولية أخرى بخصوص التفرقة العنصرية، وجريمة إبادة الجنس البشرى.

ونعرض فيما يلى لمجموعة أساسية من حقوق الإنسان التى كفلتها فى النص شريعة القرآن فى الطور العملى للحضارة العربية الإسلامية.

أول هذه الحقوق حق الحياة الذى يحتل مكان الصدارة فى سائر الوثائق الدولية الحديثة لحقوق الإنسان، وفضلاً عن أن الشريعة الإسلامية كانت الأسبق فى مشرق الإسلام إلى إعلان هذا الحق، فلقد كان النص عليه أدق وأشمل. كما كان الالتزام به فى مبادئ العقيدة وحقائق الإيمان أصدق وأبقى.

لقد كان حق الحياة الذى يعنى حرية النفس أن تحيا آمنة من القتل هو أقدس الحقوق التى نصت عليها الشريعة الإسلامية، وجعلته القاعدة الأولى التى يتأسس عليها العمران الإنسانى. لذلك فإن الشريعة بنص القرآن، وفوق ما يبلغ إليه أى نص دولى، قد جعلت من قتل النفس الواحدة - بغير استحقاق للقتل - جريمة تعادل قتل الناس جميعاً، أى قتل النوع الإنسانى، ثم أكملت المعادلة فى النص بأن جعلت إحياء النفس الواحدة، وحمايتها من أى ظلم يقع بإزهاقها، حسنة تساوى إحياء الناس جميعاً.

وفى هذا يقول الله: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿المائدة/٣٢﴾

أى أن قتل نفساً لم تقتل نفساً أخرى، ولم تفسد فى الأرض بقطع الطريق وترويع الآمنين فإن ذلك فى حكم الشريعة الإسلامية عدوان يعادل قتل الناس جميعاً.

لهذا شدد الإسلام فى عقوبة القتل فجعل قتل القائد بيد ولى القتيل، احترام هذا الجزاء سبباً من أسباب حياة المجتمع، وإطلاق قدراته إلى العمل المثمر فى ظل الأمن الناشئ من استقرار "حق الحياة" لكل إنسان.

وفى هذا يقول الله: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

﴿ البقرة/١٧٩ ﴾

بهذا الالتزام بمبدأ حق الحياة للإنسان، وبالتشدد فى الجزاء على أى عدوان عليه سارت الشريعة فى مقدمة الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان من هذه الزاوية فضلاً عن موقفها من هذا الجانب الإنسانى بالنسبة للقوانين الوضعية التى كانت سائدة قبل ظهور الإسلام.

ومن أهم هذه الحقوق حق حرية **الإرادة للإنسان** فلا يكون مملوكاً بالرق لإرادة غيره. أو عبداً له. وهذا الحق العظيم من وجهة نظر الشريعة الإسلامية لا يكفى أن تمنحه شريعة أو نظام أو دولة أو حاكم للأفراد، إذ أنه من إيمان الإنسان بالله ينبع إدراكه أن إرادته لا يملكها إلا الله، كما تنبع طاقته وقدرته على رفض العبودية للبشر إلى حد القتال عن حريته وإرادته.

لذلك كان موقف الشريعة الإسلامية هو أن تدفع بإرادة المؤمنين الأحرار نحو عتق من بيدهم من الرقيق بحق الإيمان، وبحق الإنسانية، أو كفارة عن الذنوب. كما تنمى فى إرادة الرقيق أن يكونوا بالإيمان أهلاً لحرية الإرادة، وأهلا لتوجيه عبوديتهم لله وحده، مع تهيئة جميع الظروف المعاونة على تحررهم.

لقد كان هذا الموقف الأكثر إحاطة فى موضوع الرقيق بالطبيعة الإنسانية المتغيرة تجاه حرية الإرادة الفردية أو حرية الرقبة، وتغير المواقف من هذه الحرية فى حالات الحروب سواء للأفراد أو الشعوب هو الذى يفسر لماذا لم تتجه الشريعة الإسلامية إلى الحكم المباشر والقطعى بإلغاء الرق، وإنما اتجهت إلى فتح جميع الأبواب التى تؤدى إلى عتق جميع الرقيق، وإلى إزالة جميع الأسباب التى تؤدى - كما حدث بعد الحرية للعديد من الشعوب الإسلامية - إلى استعباد جميع الأحرار. كما اتجهت الشريعة إلى دعوة المؤمنين دعوة مباشرة تطوعية إلى فك ما بأيديهم من الرقاب، وكما ألزمتهم فى كثير من الحالات بتحرير الرقاب كفارة عن بعض الذنوب المنصوص عليها فى القرآن الكريم.

وفى هذا المجال قررت الشـريعة الإسـلامية أن تلتزم الدولة فى أحد وجوه إنفاقها للأموال بتحرير الرقيق. وفى هذا يقول الله: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة/٦٠﴾

ويقول الله فى حض المؤمنين على فك ما بأيديهم من رقاب الرقيق: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿البلد ١١/١٣﴾

ولقد ارتبط مفهوم التحرير للرقيق فى الإسـلام، وتحبيب ذلك إلى المؤمنين وإلزامهم به أحياناً ما نصت عليه الشريعة من كراهية الحرب التى هى أعظم مصـادر الاسـتعباد فى المجتمع البشـرى، كما اسـتنكرت الغدر فى الحروب، وألزمت بحُسـن معاملة الأسـرى، وحماية الشـيوخ والنسـاء والأطفال. ولقد تم العثور على وثائق تاريخية ترجع إلى عصر الفتح وحروب التحرير الإسلامى تبين بوضوح تام معارضة الإسلام لنظام الرق.

حق **حريـة الاعتقـاد** وهو ما بـادر المسـلمون بتطبيقه فـألغوا أيـة آثـار للاضـطهاد الدينى كالذى وقع من الدولة الرومانية الغربية والشـرقية على المسـيحيين بمصـر وسـوريا. وسـمحوا بغير تردد بحرية ممارسـة المعتقدات المختلفة، وإقامة المعابد الخاصـة، وتعهدوا بحماية هذه الحرية لأصـحابها. على أن لا يكون من أهداف أى عقيدة مناهضـة عقيدة أخرى تحت لواء هذه الحريـة التى أتـاحها الإسـلام بصـورة فى التطبيق لا تزال فريدة فى تاريخ المجتمع الإنسانى.

وفى هذ الحق يقول الله: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة/٢٥٦﴾

ويقول: وَلَوْ شَـاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿يونس/٩٩﴾

ويقول: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿العنكبوت/٤٦﴾

حق **المساواة فى الإنسانية**، وإدانة نظرية التفوق بمحص الانتماء إلى عنصر أو سلالة أو جنس، الأمر الذى لا تزال تأخذ به حضارة "الرجل الأبيض" ضد الملونين، تأثراً بالصهيونية، وتعلقاً بالنزعة الآرية التى ظهرت فى إحدى صورها البشعة فى التهوس النازى والفاشى السافر فى النصف الأول من القرن العشرين.

أعلن القرآن عن هذا الحق فى قول الله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿الحجرات/١٣﴾

بذلك أدان القرآن أهم مشكلة تعانى منها الإنسانية فى الوقت الحاضر على الرغم من مواثيق حقوق الإنسان الوضعية غير المستقرة على قاعدة الإيمان، وغير المستجبة لذلك لدواعى التنفيذ، مع أنها شغل الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية منذ عام ١٩٤٥ حتى الآن.

ولقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم أحكام الشريعة فى هذا المجال فنهى عن التفرقة العنصرية منذ أوائل القرن السابع الميلادى، وأثار أذهان البشرية إلى مساوئها وأخطارها التى لا تزال ماثلة حتى اليوم وذلك حيث قال "لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى" وبينما ظل هذا الشعار سائداً وغالباً على مشاعر المسلمين من العرب وغيرهم فإن الاستعمار الأوروبى والصهيونية العالمية يرفعان العدوان العنصرى الإسرائيلى على الوطن العربى إلى قمة العمل المشروع فى الوقت الذى تصدر فيه الدول الأوروبية باسم حضارة الرجل الأبيض فكرة الدفاع الدولى عن مبادئ الحريات وحقوق الإنسان!!

وكذلك من الحقوق التى يسرتها الشريعة الإسلامية للإنسان وأكدتها بالتنفيذ **حق العدل**، وطلب الإنصاف بمقتضى الشريعة وإقرارها على الأقوياء للضعفاء، مع ضمانات الاستماع الحسن للمتخاصمين، والمساواة بنيهما، وتعجيل النظر، وتغليب العدل على الهوى، وحق الاستئناف والمبادرة بالتنفيذ، واعتبار هذا الحق بالعدل فوق أى سلطان مهما بلغ، لأن العدل سلطان الله.

وقد استقر هذا الحق فى الشريعة الإسلامية على ركائز كاملة الوضوح والحسم فى آيات من القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى عن تحكيم العدل وإتاحته للجميع:

إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿النساء/٥٨﴾

وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿المائدة/٨﴾

وقوله تعالى: وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿النحل/٨٩﴾ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿النحل/٩٠﴾

وقوله تعالى وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿المائدة/٤٩﴾

هذا بعض ما أنزل الله فى شريعته من حقوق الإنسان التى امتدت إلى كل أبعاد النشاط الإنسانى فى المجتمع فكفلت فيه ما تصلح به حياة الفرد، وحياة المجتمع، وحياة النوع الإنسانى، متغلغلة فى أدق ما تبحث فيه النظريات الحديثة للحرية والملكية من أمثال المستوى اللائق بالإنسان للمعيشة بدون تفرقة، وإلزام الحاكم بهذا المستوى، ومن احترام الأموال العامة، ومن محاسبة الولاة على المشروع وغير المشروع من كسبهم، وعلى وضع الحدود التى لا تختلط بها ممتلكات الحكام الخاصة بأملاك المجتمع والدولة، مما كان جميعه مصدر قوة المسلمين فى عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، ومما لا يزال أملاً بالنسبة للعالم المعاصر، ومما هو فى حقيقته عامل أساسى لاستعادة الأمة الإسلامية قدرتها على استحياء وجودها، وذلك بتنشيط فاعلية الشريعة الإسلامية القابلة للتطوير الحديث فى جميع المبادئ القانونية التى تحكم حقوق الإنسان المعاصر.

سماحة الإسلام وحقوق غير المسلمين

الأخوة الإنسانية

حرص الإسلام أول ما حرص على الأخوة الإنسانية بين البشر، نظراً لما أقره من الوحدة الإنسانية ومهما اختلفت الألوان وتباينت اللهجات فالخالق واحد والأصل واحد، (كلكم لآدم) لا فرق فى ذلك بين مسلم وغيره..

من أجل ذلك حرص الإسلام على الأخوة الإنسانية وعمل على تقويتها بما شرع من شرائع، وبما وضع من قوانين فى معاملة المسلمين لغير المسلمين.

نعم لقد كان رسول الله ﷺ ، رحمة الله المهداة لجميع خلقه على السواء، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿الأنبياء/١٠٧﴾

عمت رحمة الله به جميع الخلق مسلما وغير مسلم، وفاضت معاملته لغير المسلمين بالرحمة التى جعلت العدو يعترف بها، قبل الصديق وحببت الإسلام إلى النفوس، فكانت تتهافت عليه تهافت النحل على الزهر، ودخل الكثير والكثير طواعيه فى الإسلام بفضل حسن معاملة النبى ﷺ وإحسانه وتسامحه واقتداء أتباعه من بعده به.

حقاً فاض الإسلام بالبر والعدل فى كل معاملاته للمسلم وغير المسلم وحرص على أن يكون المسلم بارا بغير المسلمين عادلا معهم لا يمنعه من نصرة الحق وإقامة العدل اختلاف الدين أو الرأى انطلاقا من قول الله تعالى: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿النساء/٥٨﴾

التزم رسول الله ﷺ بمكارم الأخلاق منذ نشأته، وربى أصحابه على ذلك، فكانوا أوفى الناس عهدا فى كل ما التزموا به من عهود ومواثيق، وكيف لا؟ والإسلام الحنيف دين الوفاء بالعهد. لقوله تعالى: وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴿الإسراء/٣٤﴾

ومن هنا حرص المســـلمون على الوفاء بالعهود التى أبرموها مع غيرهم من أهل البلاد التى فتحوها.

أجل من منطلق الوفاء بالعهد كان حرص الإسلام على حقوق غير المسلمين والمحافظة عليها، وتأديتها لهم، فنحن وهم شركاء فى الوطن. لهم مالنا وعليهم ما علينا.

فقد أوجب الإســـلام علينا حمايتهم، والدفاع عنهم إذا ما عرض لهم عارض من عدوان وغيره، ماداموا ملتزمين بأداء ما عليهم من واجبات.

لقد حرم الإســـلام على المســـلمين أكل أموال الناس بالباطل أو الاعتداء على الدماء والأعراض والأموال، إذ كفل لكل إنسان فى ظل الدولة المسلمة المحافظة على دمه وماله وعرضه، وذلك من منطلق حُرمة النفس التى كرمها الله تعالى فى قوله جل شأنه: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً

﴿الإسراء/٧٠﴾ .

ومن مقتضيات التكريم تحريم الدم والعرض والمال لغير المسلمين.

على أن الإســـلام ينظر إلى الإنســـان على أنه مدنى بطبعه يحتاج إلى الناس ويحتاجون إليه.

واستعانة المسلم بغيره لا تستلزم أن تقتصر على الاستعانة بغير المسلمين.

والتاريخ الإســـلامى حافل بهذه الأمثلة منذ عهد النبى ﷺ والخلفاء من بعده وإلى عهدنا الذى نعيشه.

ما أروع الإسلام الذى قام على التسامح والتراحم مع غير المسلمين بل تخطى التسامح إلى التكريم، عرفانا بالحق.

كرم الإســـلام أهل العلم والحكمة والنظر واعترف بفضـــلهم بغض النظر عن دينهم أو جنسياتهم.

وضرب لنا أروع المثل فى تكريم هؤلاء العلماء والحكماء بتوليتهم المناصب عند الكثير من الخلفاء والحكام فى الدولة الإســـلامية، مما جعل المســـتشـــرقين والكُتاب والمؤرخين يشيدون بالإسلام فى مؤلفاتهم ويضربون المثل به فى التسامح والرحمة والعدل.

وإذا كان لكل دعوة سـلاح تدافع به عن نفسـها، فإن سـلاح الدعوة الإسـلامية الذى قامت عليه، هو وضوح الأسلوب وعذوبة اللسان ولين الكلام وسلامة المنطق فى الحوار مع غير المسلمين مجادلة بالتى هى أحسن واقناع بما هو أبلغ وأفضل، دون تعنيف أو عدوان على المعتقدات أو طعن فى الأفكار أو فظاظة فى الأســـلوب، قال تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿آل عمران/١٥٩﴾ .

***

أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم

صحيفة المدينة

كانت صحيفة المدينة أول توجيه يصدره النبى ﷺ بعد الهجرة لأهل المدينة، وضح فيه دعائم الأخوة التى تقوم بينهم فى مجتمعهم الجديد، وأنهم أمة واحدة أقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم وعاهدهم على الحماية والنصرة ما أخلصوا للدولة الجديدة.

فقد كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

هذه الصحيفة بينت دعائم المجتمع الجديد وأقر فيها النبى ﷺ اليهود على دينهم وأموالهم وعاهدهم على الحماية والنصرة وقد تضمنت المبادئ الآتية:

* وحدة الأمة من غير تفرقة بين أبنائها.
* تساوى أبناء الأمة جميعاً فى الحقوق والكرامة يجير أدناهم على أعلاهم.
* تكاتف الأمة كلها دون الظلم والإثم والعدوان والفساد كائنا من كان الظالم والمفسد.
* اشتراك الأمة فى تقرير العلاقات مع أعدائها لا يسالم مؤمن دون مؤمن.
* تأسيس المجتمع على أحسن النظم وأهداها وأقومها.
* مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام ووجوب الامتناع عن نصرتهم.

- حماية من أراد العيش مع المسلمين مسالماً معاوناً، والامتناع عن ظلمهم والبغى عليهم.

* لغير المسلمين دينهم وأموالهم لا يجبرون على دين المسلمين ولا تؤخذ منهم أموالهم.
* على غير المسلمين أن يسهموا فى نفقات الدولة كما يسهم المسلمون.
* على غير المسلمين - فى الدولة الإسلامية - أن يتعاونوا معهم لدرء الخطر على كيان الدولة ضد كل عدوان، وعليهم أن يشتركوا فى نفقات القتال ماداموا محاربين.
* على الدولة أن تنصر من يُظلم منهم كما تنصر كل مسلم يعتدى عليه.
* على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ومن يناصرهم.
* إذا كانت مصلحة الأمة فى الصلح وجب على جميع أبنائها - مسلمين وغير مسلمين - أن يتقبلوا الصلح.
* لا يؤخذ إنسان بذنب غيره ولا يجنى جان إلا على نفسه.
* حرية الانتقال فى داخل الدولة وإلى خارجها مصونة بحماية الدولة، ولا حماية لآثم ولا لظالم.
* المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

كتاب الرسول ﷺ لأهل نجران:

صالح الرسول ﷺ أهل نجران على شروط اشترطها عليهم واشترطوها لأنفسهم وكتب لهم بذلك هذا الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمد النبى ﷺ لأهل نجران إذا كان له حكمه عليهم: إن فى كل سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء وثمرة ورقيق وأفضل عليهم[٣٠] بترك ذلك لهم: ألفى حلة، وفى كل رجب ألف حلة، كل حلة أوقية مازاد الخراج أو نقص فعلى الأواقى فليحسب وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بحساب[٣١] وعلى أهل نجران مقرى رسلى[٣٢] عشرين ليلة فما دونها وعليهم عارية ثلاثين فرسا وثلاثين بعيرا وثلاثين درعا إذا كان كيدا باليمن ذون معذرة[٣٣] وما ملك مما أعاروا رسلى فهو ضامن على رسلى حتى يؤدوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها[٣٤] ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانيتهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وعلى أن لا يغيروا أسقفا من سقيفاه ولا واقها من وقيهاه[٣٥] ولا راهبا من رهبانيته وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا[٣٦]، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقا فالنصف بينهم بنجران، على ألا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم[٣٧] شهد بذلك عثمان بن عفان ومعيقب وكتب[٣٨] .

كتاب أبى بكر رضى الله عنه لأهل نجران:

ولقد حذا الخلفاء الراشدون والحكماء المسلمون حذو رسول الله ﷺ فى معاملة غير المسلمين.

فقد جاء بعد وفد نجران إلى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فكتب لهم:

---

[٣٠] - يعنى تفضل ومن عليهم بترك أموالهم بعد أن كان الحكم له عليهم.

[٣١] - يعنى إذا قضوا ما عليهم من خراج من هذه الأشياء المذكورة تؤخذ منهم بحسابها.

[٣٢]- أى ضيافتهم وقراهم.

[٣٣]- يعنى إذا حصل غدر من أهل اليمن واحتاج المسلمون أن يستعيروا منهم هذه الأشياء للحرب فعليهم أن يعيروهم إياها ثم ترد إليهم بعد الحرب وإذا تلف منها شئ ضمنه المسلمون.

[٣٤] - يعنى ما يتبعها من القرى والدساكور.

[٣٥] - قال ابن الأثير: هكذا يروى بالفاق وإنما هو بالفاء. والوافه القيم على البيت الذى فيه صليب النصارى.

[٣٦]- يحشروا يعنى يجلوا من أرضهم، ويعشروا بمعنى تؤخذ منهم العشور.

[٣٧] - انظر إلى تلك الوثيقة التى تفيض عدلاً ورحمة وليس فيها عنف بقوم آثروا عبادة الصليب على عبادة الله عز وجل.

[٣٨] - كتاب الأموال للحافظ ابن سلام. ص ١٨٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب به عبد الله أبو بكر خليفة محمد النبى ﷺ لأهل نجران أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبى ﷺ على أنفسهم وأرضهم وملتهم وأموالهم وحاشيتهم وعبادتهم وغائبهم وشاهدهم وأساقفتهم ورهبانهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يخسرون ولا يعسرون ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته وفاء لهم بكل ما كتب لهم محمد النبى ﷺ وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبى ﷺ أبدا وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق[٣٩].

كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغير المسلمين فى بيت المقدس:

كان من شأن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهدهم ويخلص فى الوفاء به إخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه، يتجلى ذلك واضحاً فى الأمان والعهد الذى أعطاه لغير المسلمين فى بيت المقدس:

كتب للنصارى فى بيت المقدس أمانا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وحين جاء وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة خرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا: هنا صلى عمر ثم كتب كتابا يوصى به المسلمين ألا يصلى أحد منهم على الدرجة إلا واحدا واحدا غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

أما عهده لهم فقد كان مثالاً فى السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت فكتب لهم العهد الذى قال فيه:

(هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها.

إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها:

إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدر ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللصوت[٤٠] فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

---

[٣٩]- كتاب الخراج للحافظ يعقوب بن إبراهيم.

[٤٠] - اللصوت: أى اللصوص. مفرده لصت.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسـير بنفسـه وماله مع الروح ويخلى بيعهم وصـلبهم فإنهم آمنون على أنفســهم وعلى بيعهم وصَــلبُهم[41] فإنهم آمنون على أنفســهم وعلى بيعهم وصَلبُهم حتى يبلغوا مأمنهم.

وليس لذى عهد من ظافر أن يطمع فى أمان أكرم من هذا الأمان.

وإنه كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصـاة للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفى لهم بعهدهم ويُنضـحُ[42] عنهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم[43].

بهذه المبادئ الإنسـانية الرفيعة، وبهذه القيم الإسـلامية النبيلة السـمحة أقام الإسـلام دولـة وكون أمـة لا تعرف - على اختلاف طوائفهـا وأديـانهـا - لا تعرف الحقد ولا البغى، ولا القسـوة ولا الظلم، ولا يحركها أو يقيمها أو يقعدها سـوى البر والرحمة والتعاطف وروح الإنسانية العامة.

الأمر الذى غدا فى ضـمير خلفاء الأمة وحكامها وشـعوبها وحياتها ترجمة عملية، وواقعاً حيا للحديث النبوى الشـريف الذى يوثق فيه النبى ﷺ العروة بين الإيمان الحق والعلاقات الإنسانية الصادقة حيث يقول:

"لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا: يـا رســول الله كلنـا رحيم، قـال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة".

(رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح).

*****

---

[41]- البيع جمع بيعة وهى معبد النصارى، والصلب جمع صليب

[42] - ينضح عنهم: يدافع عنهم

[43]- عبقرية عمر لعباس محمود العقاد

البر والعدل مع غير المسلمين

إن الإسلام دين الحق والمنطق، والشريعة العادلة والقسطاس المستقيم، الذى إن احتكم إليه الناس صانوا حقوقهم وأدوا واجبهم، لأنه يتحرى بأحكامه العادلة وضع الحق فى نصابه، ورد الحقوق إلى ذويها، والانتصاف للضعيف من القوى وللمظلوم من الظالم، لا فرق فى ذلك بين المسلم وغيره، فإذا احتكم المخالفون لنا فى الدين إلى الحاكم المسلم، وجب الحكم بشريعة الإسلام وعدم الزيغ عنها والجنوح عن عدالتها لتعصب أو هوى، هذا فضلاً عما يجب نحوهم من إحسان معاملتهم والعطف عليهم والبر بهم، نظراً لما تربطنا بهم من علائق إنسانية، وروابط وطنية.

ولقد رسم الدين الإسلامى الحنيف الطريقة المثلى لكسب ود غير المسلمين وصداقتهم، وبيّن أن فى اتباع هذه السياسة ما يؤدى إلى نشر السلام وكسب الثقة، وإزالة حاجز الخوف الذى يفصل بين المسلمين وبين غيرهم، حتى يقارنوا بين ما هم عليه، وبين ما يدعو إليه الإسلام، وما يعاملهم به المسلمون من بر وعدالة، وقد يكون ذلك أقرب السبل وأقصرها وأيسرها إلى هدايتهم.

قال تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿المتحنة/٨﴾ .

ففى الآية الكريمة رخصة من الله تعالى لعباده المؤمنين فى صلة الذين لم يعادوهم من غير المسلمين ولم يقاتلهم ولم يخرجوهم من ديارهم، إذ رخص الله للمسلمين به على وجه الصلة، فهذا هو المقصود من قوله تعالى: "وتقسطوا إليهم" إذ ليس المراد بذلك العدل، فإن العدل واجب علينا فيمن قاتل وفى من لم يقاتل.

فما أعظمها من آية كريمة بها أرسى الله تعالى قاعدة التعامل بين المسلمين وغيرهم ممن ليسوا على دينهم، حيث يطلب الله تعالى من المسلمين أن يحسنوا معاملة من لم يقاتلهم ممن ليسوا على دينهم، بل يقابلوهم بالحسنى، ويعاملوهم بالعدل والقسطاس، لأن الله تعالى يأمر بالعدل والإحسان ويحب من يتصف بهاتين الصفتين.

وفى هذا اشعار بأن علينا أن نحسن معاملة من يقيمون معنا فى ديارنا ممن ليسوا على ديننا.

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ مثلاً رائداً وتجسيداً حياً لكل ما جاء به الإسلام، وفى مجال وجوب العدل مع غير المسلمين والحكم عليهم، والفصل فيما بينهم بما أنزل الله، كان الرسول الكريم قمة شامخة فى تحكيم كتاب الله تعالى وشريعته على المخالفين له فى الدين من اليهود الذين جاوروه فى المدينة فى كل ما رُفع إليه من خصوماتهم فيما بينهم، وفيما بينهم وبين المسلمين، لم يجر فى حكمه ولم يزغ عن عدله.

عن البراء بن عازب رضى الله عنه قاله: مر على النبى ﷺ بيهودى محمما مجلودا، فدعاهم ﷺ، فقال: هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قالوا نعم: فدعا رجلا من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر فى أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذ أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا تعالوا، فلنجتمع على شئ نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحمم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ : اللهم أنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ﴿المائدة/٤١﴾

يقول ائتوا محمدا ﷺ، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا فأنزل الله تعالى: وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿المائدة/٤٤﴾

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المائدة/٤٥﴾

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿المائدة/٤٧﴾ فى الكفار كلها.

ولقد حذا الخلفاء الراشدون والحكام المسلمون حذو رسول الله ﷺ، فى وجوب تحرى العدل والحكم بالقسطاس المستقيم على غير المسلمين ممن رفعت إليهم خصوماتهم دون تعصب أو ممالأة. الأمر الذى أثار انتباه هؤلاء المخالفين إلى عظمة الإسلام، فما وسع الكثير منهم إلا الانجذاب إليه والإيمان به.

١- قال سعيد بين المسيب رضى الله عنه: إن مسلما ويهوديا، اختصما إلى عمر رضى الله عنه، فرأى الحق لليهودى فقضى له عمر به، فقال له اليهودى: والله لقد قضيت بالحق فضربه عمر بالدرة، وقال: وما يدريك؟ فقال اليهودى: والله أنا نجد فى التوراة: ليس قاض يقضى بالحق إلا كان عن يمينه ملك، وعن شماله ملك، يسددانه ويوفقانه للحق، مادام على الحق، فإذا ترك الحق عرجا وتركاه رواه الإمام مالك.

٢- ووجد على رضى الله عنه درعه عند رجل من أهل الكتاب فأقبل به إلى شريح قاضيه يخاصمه، مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعى ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح الرجل: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال: ما الدرع إلا درعى، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب: فالتفت شريح إلى على يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟

فضحك على وقال: أصاب شريح ما لى بيّنه، فقضى بالدرع للرجل فأخذها، وأمير المؤمنين ينظر إليه إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشـــهد أن هذه أحكام أنبياء... أمير المؤمنين يديننى إلى قاضيه فيقضى عليه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشـــهد أن محمدا عبده ورســـوله. الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صـــفين فخرجت من بعيرك الأورق، فقال على: أما إذا أسلمت فهى لك[٤٤].



[٤٤]- العدالة الاجتماعية: للأستاذ سيد قطب ص ١٩٢

نماذج من الوفاء بالعهد لغير المسلمين

انقضى عهد النبى ﷺ ، والمسلمون يعلمون حدودهم فى كل علاقة تعرض لهم مع جيرانهم، علاقة الود والوئام وعلاقة الحرب والتعاهد، وعلاقة الموادعة والمهادنة وعلاقة الأمان والاستئمان.

ولقد التزم المسلمون بحدودهم ووفوا بعهودهم ولم يؤثر عنهم أنهم تجاوزوا حدا أو نقضوا عهداً أو أخلفوا وعداً، حيث لم يسجل التاريخ عليهم شيئا من ذلك. بل على العكس فقط فاض بصور من وفائهم وبرهم منها على سبيل المثال:

١- وفاء رسول الله ﷺ بعهد حذيفة لقريش:

إنها لصورة فذة للوفاء بالعهد حتى ولو كان عهدا خاصا - فالمسلمون مرابطون ببدر انتظارا للجيش المشرك الذى تحرك من مكة وحذيفة وأبوه - رضى الله عنهما - يخرجان إلى المدينة بعد عهد قطعاه مع قريش ألا يقاتلا مع رسول الله ﷺ. وعندما يعرضان الأمر على الرسول الكريم. لا يلغى عهدهما مع حالة الحرب القائمة والمعركة المرتقبة.

عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال:

(ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكما تريدان محمداً. قلنا ما نريد إلا المدينة فأخذوا من عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فآتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: "انصرفا. نفى بعهدهم ونستعين الله فيهم".

وتلكم صورة رائعة أخرى تجلت فى صلح الحديبية حيث نقل الإمام البخارى (لما كاتب رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو مفوض قريش فى صلح الحديبية قال لا يأتيك أحد منا وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه) فرد رسول الله ﷺ أبا جندل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال إلا رده فى مدة الصلح وإن كان مسلما.

ففى هذه الصورة قمة الوفاء بالعهد وذروة التنفيذ للشروط المتفق عليها.

يا لله لجلال سماحة الإسلام وعدالته ودقة التزام بعهوده!

وليس هذا بدعاً فى شريعة الإسلام الغراء التى من دأبها الجنوح إلى السلم إذا بدرت بادرة من الاعداء أو لاح شعاع من نور يهدى إلى السلام وكيف لا ورسول الله ﷺ يقول فيما رواه البخارى "ذمة المسلمين واحدة.. يسعى بها أدناهم".

٢- تحذير عمر (رضى الله عنه) بعدم الغدر فى العهود:

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشدد النكبير على الجندى المسلم ألا يعطى أمانا ثم يغدر به. لتنافى ذلك مع مبادئ الإسلام فقد كتب إلى عامل جيش كان قد بعثه إنه بلغنى "أن رجالا منكم يطلبون العلج - الكافر العجمى - حتى إذا اشتد فى الجبل وامتنع قال رجل مترس: لا تخف، فإذا أدركه قتله وإنى والذى نفسى بيده لا أعلم مكان أحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه" أخرجه فى الموطأ.

٣- المسلمون والمستأمنون أمة واحدة:

كان يتم عقد المعاهدات الخارجية ممثلا فيها المسلمون والذميون كأمة واحدة، فقد روى أبو يوسف فى كتاب الخراج "لما صالح عبد الله بن أبى السرح ملك النوبة تقرر فى الصلح أنه أمان وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين بمن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، وأخذ النوبيون على أنفسهم العهد بحماية من نزل ببلدهم أو طرقه من مسلم أو معاهد"[٤٥].

٤- لم ينقض عهد إلا بحقه:

إن الإسلام لا يبيح للجيش المسلم أن يفاجئ المعاهد قبل انقضاه عهده وإعلانه بذلك مادام لم يشرع فى الخيانة فإذا أدى اجتهاد أمير مسلم إلى مخالفة هذه القاعدة وجب توجيهه لما هو مقدم عليه من خطأ.

فعن سالم بن عامر رحمه الله تعالى قال:

(كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدر، فإذا عمرو بن عبسة فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينفذ إليهم على سواء - فرجع معاوية) أخرجه الترمذى وأبو داوود[٤٦]

بعد هذا العرض لنماذج من وفاء المسلمين بعهودهم مع غيرهم نرى أن الإسلام ينظر إلى من عاهدهم من أهل الكتاب على أنهم قد أصبحوا من الناحية السياسية كالمسلمين فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات وإن بقوا من الناحية الشخصية على عقائدهم.

ولقد كان المسلمون فى كل هذا الذى تجسد من وفائهم بعهودهم التى أبرموها مع غير المسلمين، إنما يصدرون عن إيمان عميق بضرورة التطبيق لتوجيهات الرسول ﷺ ووصاياه بالوفاء للمعاهدين والقسط معهم والبر بهم ورفع الحرج عنهم والسماحة فى معاملتهم حيث قال ﷺ :

٤٥- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالى ص ١٤٥ ط: دار الكتاب العربى

٤٦- جامع الأصول جـ ٣ ص ٢٥٥.

"ألا من ظلم معاهدا أو انتقصـــــه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شـــيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة". أخرجه أبو داود

*****

من حقوق غير المسلمين وواجباتهم

ثبت لأهل الكتاب حقوق تقوم كلها على قاعدة أصلية:

إن لهم مثل ما للمسلمين، وعليم مثل ما على المسلمين إلا ما استثنى بنص أو اجماع، وذلك هو مقتضى الشركة فى الوطن الواحد فأول الحقوق التى تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجى ومن كل ظلم داخلى، هو تمتعهم بحماية الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى.

فأما الحماية من العدوان الخارجى فيجب لهم ما يجب للمسلمين، ويجب على الحاكم المسلم أن يوفر هذه الحماية لهم "ولو كانوا منفردين ببلد" لأن أحكام الإسلام جرت عليهم وتأبد عقدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين.

بل لقد نص الفقهاء بلسان ابن حزم الظاهرى - على أن "من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صونا لمن هو فى ذمة الله ورسوله، فإن تسليمه دون ذلك اهمال لعقد الذمة".

ويعلق القرافى - المالكى - على هذا النص فيقول:

"فعقد يؤدى - إلى اتلاف نفوس المسلمين وأموالهم فى سبيل الدفاع عن أهل الكتاب إنه لعظيم [٤٧].

وحين كانت القيادة الفقهية الراشدة آخذة مكانها الصحيح فى سلم القيادة الإسلامية استمسكت بذلك حتى أصر شيخ الإسلام ابن تيمة على اطلاق من فى أسر التتار من أهل الذمة مع اطلاق المسلمين.

فقال لقائد التتر: لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسير لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة[٤٨]، "وأما الظلم فى العلاقات الداخلية فقد تكاثرت على تحريمه نصوص القرآن والسُنة، ونطقت باستنكاره فى خصوص أهل الذمة أحاديث رسول الله ﷺ والآثار عن الصحابة حتى صرح غير واحد من الفقهاء بأن قواعد الإسلام تقتضى أن ظلم الذمى أشد إثما من ظلم المسلم[٤٩]".

وقد مضى طرف من هذه النصوص فى هذا الصدد، وحق الحماية يشمل الدماء والأنفس والأموال.

---

[٤٧] - القرافى. الفروق جـ ٣ ص ١٥ بتصرف.

[٤٨] - غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى للدكتور / يوسف القرضاوى ص ١٠.

[٤٩] - المصدر السابق ص ١٢ .

حتى قال على رضى الله عنه، "من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا".

وفى الفقه الإســـلامى: حرمة مالهم ولو لم يكن متقوما فى نظر الإســـلام كالخمر والخنزير، وجواز إقامة دور العبادة التى يتعبدون فيها، وقبول شهادتهم إلا فى الأمور الدينية للمســـلمين من نحو الزواج والطلاق وما يجرى مجراهما، وجواز أمان الفرد منهم موقوف على إجازة الإمام فإن لم يجزه وجب عليه رد المؤِمن إلى مأمنه، ويجب ضـــمان الحياة الكريمة لهم عند الكبر، بل إن ذلك من فروض الكفايات: إذا عجز عن القيام به بيت المال وجب على المسلمين كافة لا يسقط إلا بأدائه ويجب على الأصل نفسه فك أسراهم كافة لا يسقط إلا بأدائه ويجب على الأصل نفسه فك أسرهم من أيدى المحاربين، والحق جواز تولى القادر منهم الوظائف العامة فى الدولة إلا ما كان ذا صبغة دينية. ومع هذه الحقوق يثبت على أهل الكتاب واجبات:

أولها: أداء التكاليف المالية من خراج وضـــرائب وهم فى تكليفهم بالخراج والضرائب سواء والمسلمين.

وثانيهما: التزام أحكام القانون الإســـلامى، لأنه قانون الدولة التى هم مواطنوها، ويحملون جنسيتها.

وهذا كما يجب عليهم يجب على المسلمين من أبناء الدولة، فلا مزية فيه لأحد، ولا نقص يدخل به على أحد.

وثالثها: مراعاة شعور المسلمين، فلا يجوز لهم أن يسبوا الله ولا رسوله ولا دينه ولا كتابه جهرة.

ولا أن يروجوا من الأفكار ما ينافى عقيدة الدولة ما لم يكن ذلك جزءاً من دينهم كالتثليث والصليب عند النصـــارى[٥٠] وعلى أن يقتصـــروا فى ذلك على أبناء ملتهم لا يذيعونه فى أبناء المسلمين.

---

[٥٠]- غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى – الدكتور يوسف القرضاوى ص٤٢

وهذا الواجب يقابل الواجب الملقى على المســــلم دينيا باحترام ديانات الأنبياء قبل محمد ﷺ، وبالإمساك عن جدال أهلها إلا بالتى هى أحسن، وبالإحسان إليهم أداء لحق ذمة الله ورسوله والمؤمنين.

وسنلقى الأضواء بصفة مركزة على بعض حقوق غير المسلمين فى الصفحات التالية:

١- حق العقيدة

للإنسان فى منظور الإسلام كل الحق فى أن يعتنق الدين أو المذهب أو المبدأ الذى يشاء، وله كل الحرية فى أن يمارس من شعائر دينه مايراه علانية أو خفاء، كما أن له الحق أيضاً فى ألا يعتنق على الإطلاق أى دين طالما أن ذلك كله لا يضر بالآخرين إذا أن حرية الإنسان تنتهى عند بداية حقوق غيره.

وتقتضى حرية العقيدة حق الإنسان فيها هو ألا يفرض على أى إنسان اعتناق دين معين ولا أن يقهر عليه من أى سلطان كانت حتى ولو كان هذا الدين الرسمى للدولة ولا أن يكره على مباشرة شعائر دين ما أو يشترك فى طقوسه ومناسكه.

واتصال العقيدة بحرية الإنسان ينبع من كون العقيدة هى ما ينعقد عليه قلبه وضميره ومن ثم فإن أساس تكوينها لدى الإنسان هو عقله وفكره وقلبه ورغبته بالدرجة الأولى.

هذا ويتفرع على مبدأ الحرية فى اعتناق العقيدة اطلاق حرية الإنسان فى ممارسة شعائر دينه خفاء أو علانية[٥١].

ومن ثم نعلم أن العقيدة الصحيحة لا تتأسس إلا على الحرية والاختيار ولهذا لا يعتد بإيمان المكره ولا بكفرانه.

وقد عمق القرآن العظيم هذه الحقيقة حيث قال تعالى: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ البقرة/٢٥٦ ﴾

وقال تعالى: مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ النحل/١٠٦ ﴾ .

وقد نزلت هذه الآية فى شأن عمار بن ياسر (رضى الله عنهما) حينما شكى إلى رسول الله ﷺ إكراه المشركين له على أن ينطق بكلمة الكفر، فنطق بها فقال له النبى ﷺ:

"فكيف تجد قلبك؟ قال يا رسول الله أجده مطمئناً بالإيمان فقال: عليه الصلاة والسلام: إن عادوا فعُد".

[٥١] - الحرية الفكرية وترشيد العقل فى الإسلام.. المستشار دكتور عاصم أحمد عجيلة ص١٨-١٩

والله تبارك وتعالى يؤكد على هذه القاعدة فى قوله عز وجل: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا ﴿الكهف/٢٩﴾

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على هداية الخلق إلى الحق رحمة بهم وانطلاقاً من أنه ﷺ رحمة الله للعالمين.

وكان يحزنه ص إعراض البعض وتلكؤ البعض وحرب البعض الآخر لهدى السماء، وكاد هذا - وهو يؤرقه - أن يترك آثاره على حياته ﷺ لولا قطرات الوحى الأعلى التى كانت تتنزل بين الفينة والأخرى على قلبه ﷺ بردا وسلاما فترطب من نفسه، وتهدئ من روعه، وتجدد فى وجدانه الأمل فى نصرة الحق وانتشار دعوته، كما تحدد بين عينيه الدوائر والأطر الفاصلة بين ما يدخل فى نطاقه ﷺ كرسول ونبى من شئون البلاغ والدعوة وبين ما هو خارج عن هذا النطاق، وما لا سبيل له إليه من إقبال الناس على دعوته وإيمانهم بها من حيث كانت قلوب البشر وعقولهم لا سلطان لأحد عليها فى بث عقيدة ما فى جوانحها أو نزعها منها...

وظلت نجوم القرآن فى هذا تكثف من فعالياتها فى نفس الرسول ﷺ حتى يتجاوز كبوة هؤلاء إلى غيرهم...

بل إن الله تعالى تقدست ذاته. وهو القائم على كل نفس بما كسبت وقلوب عباده بين اصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء لم تتعلق إرادته بهداية الناس جميعاً.

قال تعالى: وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ

﴿يونس/٩٩﴾

وقال تعالى: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿الشعراء/٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿الشعراء/٤﴾

إذ أن العقيدة نبته يستحيل أن تنبت فى قلب ليست لديه قابلية الإنبات، كما أنه يستحيل أن تنزع من قلب أشربها ونمت فيه وترعرعت بين جوانحه وأصبحت هى التى تحرك صاحبها، وتقيمه وتقعده يقول الله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿الشورى/٤٨﴾

ويقول تعالى لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿الغاشية/٢٢﴾ .

لقد مضـى رسـول الله ﷺ بارا بدينه وفيها برسـالته ملتزما أعظم ما يكون الإلتزام بضـوابط الدعوة وآداب عرضـها لم يخرج عليها لحظة قيد أنملة لا فى حربه ولا فى سـلمه، ولا مع متبعيه، ولا مع مخالفيه فلم يؤثر عنه مطلقا إكراه غيره على دينه، وإنما أثر عنه الرفق واللين والسماحة والموضوعية.

كان رسـول الله ﷺ إذا بعث رسـلا قال لهم: "تآلفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل بيت من مدر ولا وبر أن تأتونى بهم مسـلمين أحب إلى من أن تأتونى بأبنائهم ونسـائهم - أى أسـارى وسـبايا - وتقتلوا رجالهم".

إن الإسلام ينهج أسلوب الإقناع وعرض وجهة نظره بما لا إكراه فيه ولا حِجر فيه على الفكر والعقل ولذلك يقول الرسول ﷺ لعلى بن أبى طالب:

"والله لأن يهدى الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت".

إنه دين العقلانية والموضـوعية والإلتزام ولذا كان الذين دخلوا فى الإسلام بالكلمة الطيبة اللينة وبالإقناع وإعمال الفكر اضعافا مضاعفة[٥٢].

هذا هو منهج الإسـلام العادل فى حرية العقيدة وحق الإنسـان فيها دون فرض أو إكراه.

---

[٥٢] - السلام رسالة السماء / محمود النبوى الشال.

٢- حق الحياة

إن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان بأن خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض، وجعله خليفة عنه، وزوده بالقوى والمواهب ليسود الأرض وليصل إلى أقصى ما قدر له من كمال مادى وارتقاء روحى. ولا يمكن أن يحقق الإنسان أهدافه ويبلغ غاياته إلا إذا توافرت له جميع عناصر النمو وأخذ حقوقه كاملة، وفى طليعة هذه الحقوق حق الحياة وهذا الحق واجب للإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن لونه أو دينه أو جنسه أو مركزه الاجتماعى[٥٣].

والشريعة الإسلامية كفلت للناس جميعاً حق الحياة الحرة الكريمة، بحكم تساويهم فى النشأة الأولى قال جل وعلا:

وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿الأنعام/٩٨﴾

وقال جل شأنه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿النساء/١﴾

فالناس جميعاً من أصل واحد وهم جميعاً إخوة فى الإنسانية والله هو الذى وهبهم الحياة منذ نشأتهم الأولى.

والحياة منحة من الله تبارك وتعالى للإنسان، لا يملك أحد انتزاعها بغير إرادة الله.

والعدوان على حياة فرد بدون حق عدوان على المجتمع كله، والقصاص من الجانى المعتدى إحياء للمجتمع كله يقول الحق سبحانه وتعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿المائدة/٣٢﴾ .

---

٥٣ - فقه السُنة للشيخ السيد سابق جـ١

وقد أعطت الشريعة الإسلامية حق انتزاع الحياة من الأفراد للدولة وفقا لمصلحة المجتمع وحماية لحياة الأفراد.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ البقرة/١٧٩ ﴾.

وهذه العقوبة مقررة فى جميع الشرائع الإلهية المتقدمة وإلى هذا تشير الآية الكريمة: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ المائدة/٤٥ ﴾ .

ولم تفرق الشريعة بين نفس ونفس فالقصاص حق. سواء أكان المقتول كبيراً أم صغيراً رجلاً أم امرأة فلكل حق الحياة ولا يحل التعرض لحياته بما يفسدها بأى وجه من الوجوه.

هذا فى أهل الكتاب عامة أما النصارى منهم خاصة فقد وضعهم القرآن الكريم موضعاً قريباً من قلوب المسلمين فقال جل شأنه: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ المائدة/٨٢ ﴾.

والإسلام يوصى بأهل الكتاب خيرا أينما كانوا، غير أن المقيمين فى ظل دولة الإسلام منهم لهم وضع خاص، وهم الذين يسمون فى اصطلاح المسلمين باسم أهل الذمة، والذمة معناها العهد، وهى كلمة توحى بأن لهم عهد الله وعهد رسولهﷺ وعهد جماعة المسلمين وأن يعيشوا فى ظل الإسلام آمنين مطمئنين، وهؤلاء مواطنون فى الدولة الإسلامية، فقد أجمع المسلمون منذ العصر الأول إلى اليوم على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا ما هو من شئون الدين والعقيدة فإن الإسلام يتركهم وما يدينون وقد شدد النبى ﷺ فى الوصية بأهل الذمة وتوعد كل مخالف لهذه الوصايا بسخط الله وعذابه. يؤيد هذا ما رواه الخطيب فى التاريخ بسند حسن عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

"من آذى ذميا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة"[٥٤].

وروى الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

[٥٤] - الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير للسيوطى ج ٢ ص ٥٤٧

"من قتل معاهدا - من له عهد مع المســـلمين - لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً"[55].

وروى الإمام النسـائى بسنده عن رجل من أصـحاب النبى ص أن رسـول الله ص قال:

"من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مســـيرة سبعين عاماً"[56].

وروى الحافظ الهيثمى بسنده عن رجل عن النبى ص أنه قال:

"ســـيكون قوم لهم عهد فمن قتل رجلاً منهم لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة تسعين عاماً"[57]. حديث صحيح

وقد جرى الخلفاء الراشـــدون على رعاية حق الحياة لهؤلاء، يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضـــى الله عنه فى كتاب له إلى عمرو بن العاص فى أثناء ولايته على مصر:

(إن معك أهل الذمة والعهد فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله خصمك[58]

وقد أكد الفقهاء على اختلاف مذاهبهم هذا الحق.

ولقد أتى برجل من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة فقامت عليه البينة فأمر على بقتله فجاء أخوه فقال: إنى قد عفوت فقال: فلعلهم هددوك وفرقوك قال: لا ولكن قتله لا يرد على أخى عوضـوا لى ورضـيت قال: أنت أعلم من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا ودينه كديننا.

٣- حق الأمن

إذا طلب الأمان أى فرد حتى لو كان من المحاربين قُبل منه، وصـار بذلك آمناً، لا يجوز الاعتداء عليه بأى وجه من الوجوه يؤيد هذا ويوضحه قوله الله سبحانه وتعالى:

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ

﴿ التوبة/٦ ﴾

وهذا الحق ثابت للرجال والنساء والأحرار والعبيد، فمن حق أى فرد من هؤلاء أن يؤمن أى فرد من الأعداء يطلب الأمان، ولا يمنع من هذا الحق أحد من المسـلمين إلا الصبيان والمجانين.

[55] - فتح البارى بشرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر

[56] - سنن النسائى بشرح الحافظ السيوطى.

[57] - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمى.

[58] - المساواة فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى.

روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه:
أنه بلغه أن بعض المجاهدين قال لمحارب من الفرس:
(لا تخف، ثم قتله) فكتب رضى الله عنه إلى قائد الجيش:
(أنه بلغنى أن رجالا منكم يطلبون العلج حتى إذا اشتد فى الجبل وامتنع، يقول له، لا تخف. فإذا أدركه قتله! وإنى والذى نفسى بيده لا يبلغنى أن أحداً فعل ذلك إلا قطعت عنقه).
وعن النبى ﷺ قال:
"من آمن رجلاً على دمه فقتله فأنا برئ من القاتل وإن كان المقتول كافراً".

٤ـ حق التعلم والتعليم

دعا الإســـلام إلى العلم منذ بدء نزول القرآن على النبى ﷺ، وحث على طلبه، وجعل للعلماء والحكماء مكانة خاصة، ومنزلة عالية، فالإسلام ـ وهو دين التسامح ـ يكرم أهل العلم، ويعترف بفضـــلهم دون النظر إلى ملتهم التى يتبعونهـا، أو جنسيتهم التى ينتمون إليها.

ولقد أعطى الإســـلام الحق لكل فرد فى أن ينال من العلم والثقافة ما يشـــاء وما تتيحه له إمكاناته وظروفه وما يبيحه له استعداده.

وإذا رجعنا إلى المسـلمين الأوائل وجدنا أن النبى ﷺ قد افتدى أسـرى بدر بتعليم كل واحد منهم الكتابة والقراءة لعشـرة من المســلمين، ولم ير ﷺ بأســا بتعليم غير المسلمين لهم. نظرا لحاجتهم الماسة إلى نشر الكتابة والقراءة فى دولة ناشئة، كان أول ما نزل على رسولها " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿العلق/١﴾.... إلخ" ويقاس على ذلك غيره من العلوم والفنون والصناعات.

وقد حرص الإسـلام على رعاية العلماء والحكماء من أهل الملل غير المســلمة، ولنرجع فى ذلك إلى كتب المؤرخين والفلاسـفة من غير المســلمين، لنذكر جماعة من المسيحيين وغيرهم، ممن بلغوا الحظوة عند خلفاء المسلمين وعامتهم.

قال المســتر درابر أحد المؤرخين وكبار الفلاسـفة من الأمريكان: إن المســلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصــروا فى معاملة أهل العلم من النصـــارى واليهود وغيرهم على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى المناصـــب المختلفة فى الدولة حتى إن هارون الرشـــيد وضـــع جميع المدارس تحت مراقبة (حنا مسنيه). وقال فى موضع آخر: كانت إدارة المدارس مفوضة إلى المســـيحيين تارة وإلى اليهود تارة أخرى، ولم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم، ولا إلى الملة التى يتبعها، أو الدين الذين يدين به، بل لم يكن الإســـلام ينظر إلا إلى مكانـة العالم من العلم والمعرفة، قال الخليفة العباســـى الأكبر المأمون: الحكماء هم صــفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده، لأنهم صــرفوا عنايتهم إلى نيل فضـــائل النفس الناطقة، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة، هم ضـــياء العالم، وهم واضعو قوانينه، ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية.

وقال فى موضـــع آخر: إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبى أولادهم من النصارى، ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين.

ومن هنا يتضح للغريب والقريب على السواء دون تمييز فالكل يوزن بميزان واحد وهو ميزان العلم والحكمة.

٥- حق العمل

إن العمل فى الإسلام مكفول لكل الناس لا فرق بين مسلم وغير مسلم.

ولقد أعطى الإسلام كل فرد الحق فى أن يزاول أى عمل مشروع يروق له، وتكون لديه الكفاية للقيام به.

وقد حث الإســـلام على العمل أيا كان نوعه مادام داخلا فى نطاق الأعمال المشروعة. أمر به، وأعلى من شأنه.

وغير المسلمين كالمسلمين فى مباشرة الأعمال والحرف المختلفة لهم حرية العمل والكسـب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحسـاب أنفسـهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة ومباشـرة ما يريدون من ألوان النشـاط الاقتصـادى شـأنهم فى ذلك شـأن المسلمين.

فقد قرر الفقهاء أن غير المسلمين فى البيوع والتجارات وسائر العقود والمعاملات المالية كالمسلمين، ولم يستثنوا من ذلك إلا عقد الربا وغيره من المحرمات وفيما عدا ذلك يتمتعون بتمام حريتهم فى مباشرة التجارات والصناعات والحرف المختلفة وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين فى شتى الأزمان وكادت بعض المهن تكون مقصورة عليهم كالصيرفة والصيدلة وغيرها واستمر ذلك إلى وقت قريب فى كثير من بلاد الإســـلام وقد جمعوا من وراء ذلك ثروات طائلة معفاة من الزكاة ومن كل ضــريبة إلا الجزية، وهى ضــريبة على الأشـخاص القادرين على حمل الســلاح وهى مقدار زهيد.

ولأهل الذمة الحق فى تولى وظائف الدولة كالمســـلمين إذا تحققت فيهم الشــــروط التى لابد منها من الكفاية والأمانة والإخلاص للدولة.

وللعامل فى الإسلام حقه فى الرعاية الاجتماعية أيا كان دينه.

ولقد عُنى الإسلام بوضـع الأسس والمبادئ الكفيلة برعاية العامل فى كل حالة من أحواله فى حال صـــحته وقدرته، وفى حال مرضـــه وعجزه أو بطالته، وهذه العناية تشمل أسرته بعد موته.

وها هى وثيقة خالد بن الوليد فى الرعاية الاجتماعية التى أظلت فى مجال العمل المسلمين وغيرهم.

صـــالح خالد بن الوليد أهل الحيرة على أمور منها: كفالة كل عامل ضـــعف عن العمل لكبر أو مرض أو كارثة.. وفى ذلك يقول:

"وجلعت لهم أيما شيخ (عامل) ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصـــار أهل دينه يتصـــدقون عليه طرحت حريته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام"[٥٩].

٥٩ - الخراج لأبى يوسف ص ١٥٥، ١٥٦.

٦- حق التملك

يقر الإسلام الملكية الفردية، ويذلل أمام الفرد سبيل التملك والحصول على المال، ويعطى كل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة الدنيا المنافسة ويفسح المجال أمام المنافسة والعمل على التفوق وبذلك يحقق تكافؤ الفرص بين الناس من هذه الميادين.

وحين يقرر الإسلام لكل إنسان حق التملك فى جو الحياة الحرة الكريمة، يندفع الناس إلى العمل ليكسبوا ما به قوام حياتهم ومعيشتهم لا يوصد باب العمل دون واحد منهم ولا تستأثر بخيرات الدنيا فئة دون أخرى، لكل إنسان بحسب طاقته وجهده وكفاءته يقول الحق تبارك وتعالى: وَأَن لَّيسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿النجم/٣٩﴾ .

فإذا حاز شيئاً منها كانت هذه الحيازة حقا لا ينازع فيه ولا يغلب عليه.

واتفقت كلمة المذاهب الإسلامية على أن أولئك الذين لم يؤمنوا بالإسلام، وإنما صالحوا الدولة الإسلامية وعاشوا فى كنفها وظل قوانينها، يجب على المسلمين أن يحترموا ما صالحوهم عليه فلا يلزموهم بأكثر منه.

ولا حرج على المسلم فى أن يجمع من المال ما شاء ما دام يجمعه من حله وينفقه فى حقه وينميه بالوسائل المشروعة.

ولقد حرم الإسلام العدوان على المال وجعل العدوان عليه من سرقة واتلاف جريمة يعاقب عليها، سواء كان صاحب هذا المال مسلما أو غير مسلم.

وحين أقر الإسلام ملكية الفرد المشروعة للمال فإنه حمى هذه الملكية بتشريعه القانونى، وتوجيهه الأخلاقى. قال تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿المائدة/٣٨﴾ .

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿النساء/٢٩﴾ .

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم السرقة منافية لما يوجبه الإيمان. فقال صلوات الله وسلامه عليه:

"…. ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن…."

وكذا غير المسلم لا حرج عليه فى أن يجمع من المال ما يشاء ما دام يجمعه وينميه بالطرق المشروعة التى أحلها الله، ففى هذه الحالة لغير المسلم على الدولة حق الحماية لماله، حتى قال على رضى الله عنه:

"من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا".

هذا هو منهج الإسلام فى حُرمة مال المسلمين ومال غير المسلمين من أهل الكتاب له نفس حُرمة مال المسلمين لا يجوز الاعتداء عليه بأى صورة من الصور.

٧- حق حرمة العرض

لقد صـان الإسـلام بتعاليمه الأعراض ووصل برعايته للأعراض إلى حد الحُرمة، فقد نظر عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يوما إلى الكعبة فقال:

(ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة منك).

فحرمة المؤمن تتمثل فى حرمة عرضه حتى عد من قُتل دفاعاً عن عرضه شهيدا.

ولقد بين لنا رسـول الله ﷺ حرمة الأعراض حين خطب فى جموع المسـلمين فوق عرفات فقال:

" يأيها الناس... وأعراضكم... حرام عليكم"

وإذا كانت هذه هى حرمة عرض المسـلم فإن حُرمة العرض لغير المسـلم لها نفس الحرمة لأنه إنسان والله كرمه نلمس هذا من فعل الرسول ﷺ حيث نهانا ﷺ عن دخول بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، وكذا نهانا عن ضرب نسائهم.

قال العرباض بن سـارية: نزلنا مع رسـول الله ﷺ قلعة خيبر، ومعه من معه من المسلمين، وكان صاحب خيبر، رجلا ماردا متكبرا. فأقبل إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضـربوا نسـاءنا؟ فغضـب رسـول الله ﷺ - لما حدث - وقال: يا ابن عوف اركب فرسـك، ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وإن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم، ثم قام فقال:

"أيحسـب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يُحرم شـيئا إلا ما فى القرآن ألا وإنى والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشـياء إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضـرب نسـائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذى عليهم".

وقد أعطى عمرو بن العاص لأهل مصر العهد بالمحافظة على أعراضهم وأبنائهم وحذر من دخول بيوتهم أو ضرب نسائهم وجاء فى هذا العهد.

(... أن لا يخرجوا من ديارهم... وأن لا تنزع نساؤهم ولا أبناؤهم...).

٨- حق الجوار

لقد اهتم القرآن الكريم والسُــنة المطهرة بحقوق الجار اهتماما عظيما، فالقرآن الكريم وضع حقوق الجار مع حق الله عز وجل وحق الوالدين، والسُنة النبوية الشريفة أظهرت لنا أن جبريل عليه السـلام مازال يوصـى النبى ﷺ بحقوق الجار حتى ظن النبى ﷺ أن الله سبحانه وتعالى سيجعل الجار وارثا لجاره لشدة التأكيد على حقوقه...

يقول الله تعالى: وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ

لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴿النساء/٣٦﴾ .

فالجار ضرب من ضروب القرابة فهو قرب بالمكان والمسكن وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب فيحسن أن يتعاون الجاران ويكون بينهما الرحمة والإحسان.

ولقد حث الدين على الإحسان فى معاملة الجار، ولو غير مسلم وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام وزاده الإسلام توكيدا بما جاء فى الكتاب والسُنة.

وقال المفسرون: "الجار ذى القربى" المسلم. "والجار الجنب" اليهودى والنصرانى.

وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلماً كان أو غير مسلم وهو

الصحيح.

ولغير المسلمين جميع حقوق الجار التى هى لعامة المسلمين[٦٠].

ولقد قال العلماء:

الجيران ثلاثة: جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذى له ثلاثة حقوق: هو الجار المسلم ذون الرحم، وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذى له حق واحد فالجار غير المسلم، وعلى هذا فالجار غير المسلم مهما كان حق الجوار فى الإحسان إليه وترك إيذائه.

---

٦٠ - السلوك الاجتماعى فى الإسلام للشيخ حسن أيوب ص٢٨٤

الإسلام والرسول فى نظر مفكرى الغرب

(والفضل ما شهدت به الأعداء)

الإسلام والرسول ﷺ
فى نظر مفكرى الغرب
والفضل ما شهدت به الأعداء

بسط الإسلام، فى مبدأ شبابه، سلطانه على قارتى آسيا وأفريقيا، وجزء عظيم من قارة أوروبا، من الناحيتين : النظرية والعملية، ثم اخترق صليل صولته أسماع الشعوب التى لم تدن به، ودوى فى رءوسها صوت جلاله القوى.. فكان من الطبيعى أن يروع الساسة، ويبلبل أفكار العلماء والباحثين من خصومه فى تلك الشعوب التى لم تكن تطمئن على مصيرها بازاء هذا التيار الجارف. وكان من الطبيعى أيضاً أن يدفع الغيظ المتعصبين من أولئك العلماء - كما دفعت غريزة حب الاستطلاع المخلصين منهم - إلى الاشتغال بنصوص هذا الدين ودراستها، للوقوف على ما فيها من فكر وآراء نظرية، وطقوس وتقاليد عملية.

وقد كان ذلك بالفعل، فنظر أولئك وهؤلاء فى نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والسيرة النبوية، نظرة ادعوا أنها نقد حر، وتمحيص برئ، وأنهم لم يتخذوا منها، كنبراس هاد، سوى الحقيقة وحدها... وإن كان ذلك لا يتفق مع الواقع إلا فى بعض الأحوال. بل إننا نستطيع أن نجزم - استناداً إلى ما بين أيدينا من مؤلفات أولئك العلماء - بأن الدراسة الجدية لنصوص الإسلام وتعاليمه، والبحث الدقيق النزيه فى أسراره ومزاياه... لم يبدأ إلا منذ القرن التاسع عشر، حين انتشرت الثقافة الشرقية فى أوروبا، وأخذ المستشرقون يجدّون فى فتح مغالق الشرق، وكشف ما فيه من كنوز، بعد حملة "نابليون" التى فاقت أهميتها العلمية أهميتها السياسية.

أما قبل ذلك العهد، فقد كانت مؤلفات الغربيين عن الإسلام مدعاة للسخرية والاستهزاء، أكثر منها مبعثاً للجدل والنقاش... لأن أكثرها كان مفعماً بالجهل المطبق، والسطحية والتعصب. وهذه الأمور من شأنها أن تسقط القيمة العلمية التى هى الدعامة المتينة لجميع المؤلفات على اختلاف أنواعها، وتباين موضوعاتها وغاياتها.

ونحن حين نقرر هذا، لا نتجنى على أولئك المؤلفين، ولكننا نذكر حقيقة واقعة، مؤيدة بالنصوص التى فى كتبهم، وفى كتب الباحثين المحدثين الأكثر نزاهة وعلماً من بين الأوربيين أنفسهم، وإليك شيئاً من هذه الحقائق:

(١) قال الأستاذ "دير مانجيم": "حينما اشتعلت الحرب بين الإسلام والمسيحية ودامت عدة قرون، اشتد النفور بين الفريقين، وأساء كل منهما فهم الآخر، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين. وفى الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة - التى أرهق فيها الجدليون البيزنطيون الإسلام بمساوئ واحتقارات، دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراسته - هب الكُتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين، وأخذوا يهاجمون العرب، فلم تكن مهاجمتهم إياهم إلا تهماً باطلة، بل متناقضة"[٦١].

(ب) قال الأستاذ "كاراى دى فو": "إن محمداً ظل وقتاً طويلاً معروفاً فى الغرب معرفة سيئة، فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه"[٦٢].

ولما كنا قد اعتزمنا أن نقصر عنايتنا فى هذا الكتاب على الكتب التى تستحق أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية، مثبتين ما احتوته من حقائق معلية لشأن الإسلام، هادمين لما اشتملت عليه من أباطيل وأخطاء زل فيها المؤلفون عن جهل طفيف، أو شطط فى الفهم، أو ابتعاد عن المنطق السليم، مبرهنين على رأينا بأنصع الأدلة وأسطح الحجج... ولما كانت هذه الخطة التى اعتزمناها، تستتبع الاغضاء عن الأكثرية الغالبة من المؤلفات التى كتبت قبل القرن التاسع عشر... فقد آثرنا أن نكتفى - فى جانب هذه المؤلفات القديمة - بإشارات عاجلة إلى كل واحد منها. وإليك هذه الإشارات:

تحدثنا قصيدة "رولان" - وهى أهم منتجات العصور الوسيطة الغربية على الإطلاق - بأن فرسان شارلمان قد أسقطوا الأصنام الإسلامية، وأن العرب يعيدون ثالوثاً مؤلفاً من: "محمد"، و"أبولون"، و"تيرفاجان".

ولا أحسب أن التاريخ قد عرف سخفاً أحط من هذا السخف، أو ضلالاً أسقط من هذا الضلال. وإننا لا نستطيع أن نعزو هذه الأضلولة الوضيعة إلى الجهل وحده، بل إلى سوء النية أيضاً... لأن انحصار غاية الإسلام المثلى فى التوحيد، والحاح القرآن على إثبات انفراد الله بالعبادة الحقة، ومحاربة الوثنية، وإزالة النبى إياها من فوق جدران الكعبة... كل ذلك يوضح رأى الإسلام فى التوحيد، بل إن كلمة الإسلام التى لا يثبت إلا بها - وهى كلمة "لا إله إلا الله" - هى نفسها حملة قاسية على الأوثان والوثنية.

أما الثالوث الذى زعم مؤلف القصيدة أن المسلمين يعبدونه، فهو أمر لم يعرفه الإسلام يوماً ولا المسلمون، لأن المسلمين موحدون توحيداً خالصاً نقياً، لا يعرف المواربة ولا الهوادة.

[٦١]- انظر صفحة ١٣٥ من كتاب "حياة محمد" لإميل ديرما نجيم، طبعة باريس سنة ١٩٢٩

[٦٢]- انظر صفحة ٢٠ من كتاب "المحمدية" للبارون كارادى فو، طبعة باريس سنة ١٨٩٧

يشاهد القارئ فى قصيدة "أورشليم" وصفاً دقيقاً لتمثال زعم مؤلفها أنه صُنع للنبى من الذهب والفضة الخالصين، وأن قاعدته هى تمثال فيل أصعد فوقه كأنه يمثل النبى ﷺ وهو راكب.

وقد وصلت الجرأة على الحق والتجنى على التاريخ، بهذا الشاعر، إلى حد أسقطه من صفوف المؤرخين الذين يسجلون الحوادث على حقيقتها إسقاطاً تاماً، لأن أولئك الغربيين المحدثين أنفسهم اقتنعوا - بعد الدرس والبحث - أن مهمة الإسلام الأولى كانت القضاء على الوثنية ومحو آثارها، والحكم بالإعدام على جميع ما يمت إليها بصلة من قريب أو من بعيد... بل إن المحدثين يأخذون على المسلمين مغالاتهم فى هذا التشديد، ويقولون: إن المدنية الحاضرة تتطلب منهم الأخذ بنصيب من الحفر والتصوير. وقد رد المسلمون على هذه الملاحظة ردوداً مختلفة ليس هذا المجال موضع ذكرها. ولكن الذى لا ريب فه هو أن دعوى هذا الشاعر القديم سخيفة لا يؤيدها الحق، ولا يعززها المنطق، ولا يسندها التاريخ.

وهناك رواية سخيفة ألفت بعد الانتهاء من الحروب الصليبية زعم فيها مؤلفها أن الإسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معاً. وليست هذه الأكذوبة الساقطة فى حاجة إلى الرد، لأن ضآلتها تهوى بها عن أدنى دركات الجدل والنقاش. هذا نموذج من المؤلفات القديمة التى تناولت الإسلام بالطعن والتجريح المؤسسين على المعلومات الخاطئة، أو على الأهواء والأغراض. ولم نشأ أن نفيض فى سرد هذه الآراء الباطلة، أو أن نذكر عدداً من الكتب أكثر مما ذكرنا، لأننا ألفينا العلماء المحدثين من الأوربيين أنفسهم قد أنزلوها المنزلة الجديرة بها من الاغفال والاهمال، فرأينا أن مهاجمتها غير مجدية. ولهذا آثرنا أن نتخطاها إلى الكتب الجدية التى تصح أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية، ليكون البحث فيما مفيداً.

ليست العصور الوسيطة وحدها هى المشتملة على هذه المؤلفات الخاطئة، بل إن عصرى الانتقال والنهضة، والقرنين: السابع عشر والثامن عشر، قد احتوت من هذه الأخطاء العلمية والتاريخية على مقدار غير يسير. فكما سقط كتاب القرون الوسيطة وشعراؤها فى الأخطاء المرعبة التى أبنا طرفاً منها آنفاً، كذلك هوى كثير من علماء هذه القرون الأربعة الأخيرة.

فمثلاً "باسكال" و"مالبرانش" فى القرن السابع عشر، و"مونتسكيو" و"فولتير" فى القرن الثامن عشـر، و"رينان" فى القرن التاسـع عشـر، و"كازانوفا" و"دير مانجيم" فى القرن العشـرين... كل هؤلاء قد اقترفوا أخطاء جسـيمة نحو الإسـلام، وهووا فى مخالفات جدية للعلم والتاريخ. كما أن لهم ولغيرهم من المؤلفين الآخرين أمثـال: "كـارا دى فو" و"ديزيريـه بلانشـيـه" و"كليمـان هوار" و"مـاسـينبون" وأضرابهم، عن الإسلام، آراء قيمة جديرة بالاحترام.

وسـنعرض لأهم كتب أولئك العلماء فى شـىء من البسـط فى الصـفحات المقبلة ولكننا نكتفى هنا بأن نشير إلى أن "فولتير"، فى هجومه على الإسلام، كان قد أراد - فيمـا يظهر - أن يتخـذه رمزاً لجميع الـديـانـات، لأنـه كـان يطعن عليهـا من غير استثناء ولما خشـى اضـطهاد الكنيسـة والحكومة، اتخذ نبى المسلمين ستاراً يحتمى وراءه لمهاجمة جميع مؤسـسـى الأديان وقد وصـل فى النفاق إلى حد أن أهدى هذا الكتاب إلى البابا، لينال رضاه، أو ليتقى غضبه على أقل تقدير.

وممـا اعتمد عليـه العلماء فى الحكم بأن الإسـلام فى كتاب "فولتير" صـورة رمزيـة، هو أن آراءه فى كتبـه الأخرى عن الإسـلام تختلف عن رأيـه فى هـذا الكتاب، وأن طريقته فى كتابته كلها كانت دائماً تشتمل على هذا النوع من المداورة والمراوغة... اللهم إلا أن يكون "فولتير" قد قصـد بهذه الصـورة الضـالة، التى صـور بها خاتم الرسـل فى روايته، أن يرضـى البابا، وضـحى فى سـبيل ذلك بالنزاهة والحق والكرامة. ولكنه لم يفز منه بهذا الرضـا المنشـود، فخسـر الصـفقة وثمنها.

أما "رينان" فقد تناول الإسـلام فى كثير من مؤلفاته بالقدح.. ولا سـيما فى كتابه "الإسـلام والعلم"، والذى طعن فيه على العرب والإسـلام طعوناً دفعت المغفور لـه بـإذن الله السـيد جمـال الـدين الأفغـانى إلى الرد عليـه بمـا أفحمـه، وألزمـه الحُجـة والاعتراف بضعف كثير من المصادر التى استقى منها معلوماته.

وسـنمر فى الصـفحات الآتية من الكتاب على هذا كله بشـىء من التفصـيل، معقبين على الباطل منه بما يدحضه دحضاً تاماً، مثبتين الحق مع الثناء على نزاهة أصحابه ورجاجة عقلياتهم. ولكننا رأينا أن نبدأ هذا العرض بذكر الآراء الصحيحة التى هى إلى جـانـب الإسـلام والحق، فـإذا انتهينـا منهـا، مررنـا بـالآراء الأخرى المحـالفـة مرور النـاقد بـالحجـة والبرهان، لا بتـأثير العـاطفـة، أو بدافع التعصـب والهوى ونحن هنا سنكتفى ببعض عبارات موجزة قيمة، شـهد فيها أصـحابها للنبى صـلى الله عليه وسلم بشىء مما كان عليه من العظمة والجلال، أو سجلوا فيها شيئاً من سـمو القرآن ورفعته، أو خلدوا بها جانباً من جوانب امتياز الإسـلام على غيره من الأديان. والفضل ما شهدت به الأعداء. وهاك تلك العبارات:

١ ـ قال الأستاذ "كازانوفا": "إن كل تاريخ النبى العربى يدل على أن خلقه عملى جدى محمود. إنه حين اعترف الجميع بسلطانه المطلق، عرف كيف يستمع آراء الغير، ويعترف بهفواته وبصلحها. أن محمداً وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وإدراكاته للحياة الواقعية من جهة، وبين تعاليم السماء من جهة أخرى. وقد ظلت هذه الفروق خالدة فى الإسلام الذى لا يخلط بين القرآن والسُّنة، بل إنه فى السنة نفسها يفرق بين ما له صفة الموحى به، وما هو شخصى لمحمد"[٦٣].

٢ ـ قال الأستاذ "كارادى فو": "إن محمداً أتم طفولته فى الهدوء. ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود.. وقد عاش هادئاً فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره، وكان بشوشاً تقياً لطيف المعاشرة"[٦٤].

٣ ـ وقال أيضاً: "إن محمداً كان هو النبى والملهم والمؤسس، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا... ومع ذلك فلم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين. إن شعور المساواة والإخاء الذى أسسه بين أعضاء الجمعية الإسلامية، كان يطبق تطبيقاً عملياً حتى على النبى نفسه" [٦٥].

٤ ـ وقال الأستاذ "ديزيريه بلانشيه": "إن النبى محمداً يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة، وهى: أنه أحيا شعباً، وأنشأ امبراطورية، وأسس ديناً" [٦٦].

٥ ـ قال الشاعر العظيم "لامارتين": "إن محمداً أقل من إله، وأعظم من إنسان عادى: أى أنه نبى".

٦ ـ قال الأستاذ على أسير الدين[٦٧]: "صريح ذلك الراعى، قوى العزم، نقى القلب، طاهر النفس، دعاء قومه بالأمين. أحبه جده، وأوصى بذلك الصبى الجميل خيراً: فهو خير ثمرة لخير شجرة نبتت بين ربوع قريش.. وقريش هذه من أعظم قبائل العرب فى ذلك الحين".

[٦٣]- انظر صفحة ٥ من الجزء الأول من كتاب "محمد ونهاية العالم" لكازانوفا. وليعلم القارئ أن هذا الكتاب، كما اشتمل على آراء صحيحة، احتوى على أخرى فاسدة

[٦٤] - انظر صفحتى ٢٢ و ٢٣ من كتاب "المحمدية" لكارادى فو

[٦٥]- انظر صفحة ٢٣ من كتاب "المحمدية" لكارادى فو

[٦٦]- انظر كتاب "دراسات فى التاريخ الدينى" للأستاذ ليبون

[٦٧]- شاب استرالى اعتنق الإسلام وقد ألف كتاباً قيّما عن الدين الإسلامى وسيرة النبى ﷺ

٧ ـ قال الأستاذ "جاراسان دى ناسى": "إن محمداً ولد فى حضن الوثنية، ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية فذة، انزعاجاً عظيماً من الرذيلة، وحباً حاداً للفضيلة، وإخلاصاً ونية حسنة غير عاديين إلى درجة أن أطلق عليه مواطنوه فى ذلك العهد اسم الأمين"[٦٨].

٨ ـ وقال المستشرق الفرنسى الأستاذ ليبون: "حسب هذا الكتاب جلالاً ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ـ ولم بعض الشىء ـ من أسلوبه الذى لا يزال غضاً كأن عهده بالوجود أمس".

٩ ـ قال الأستاذ "ديزيريه بلانشيه" مؤلف كتاب "دراسات فى التاريخ الدينى":

"... ومن جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الإسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة قادراً على المقاومة قدرة تامة... وفى الواقع، فبماذا يمكن أن يهاجمه النقد؟ أفى تاريخ محمد؟ أنه تقريباً خال من الخوارق والمدهشات، وليس فيه تقريباً من المسلمات إلا ما فى الديانة الكاثوليكية من معتقدات طاهرة نقية. فهل توجد هذه الخوارق فى الشعائر والطقوس؟ إنك لو رجعت بالدين الإسلامى إلى قواعده الأساسية لما وجدته قد زاد على الدين الفطرى إلا نبوءات محمد، وإدراكاً حقيقياً وفهماً صحيحاً لمعنى القضاء والقدر. وهذا الفهم الصحيح للقضاء والقدر يعد صفة عامة لكل الذين يدركون بقوة عقولهم، ودقة شعورهم: أنهم فى احتياج شديد إلى أن يسيروا فى هذه الحياة بنظام دقيق، وخطة محكمة، أكثر مما يغد عقيدة من العقائد، أو أصلاً من أصول الإيمان...

"إن للمرء الحق المطلق فى اختيار أى مذهب من المذاهب الأربعة التى تسود فيها حرية الرأى بأجلى مظاهرها وأدق معاليها. أما العبادات والشعائر الدينية المستخلصة من اعتقادات ثانوية، فلا يمكن أن تقارن من جهة البساطة إلا ببساطة البروتستانتية التى هى عبارة عن الاعتقادات الطاهرة النقية، والأصول الصادقة الصحيحة التى هى فى الكاثوليكية... وإنى أعتقد أن الشرق إذا تغلب على جموده، وتخلص منه، فإن الإسلام لن يضع أية عقبة جدية فى سبيل التفكير الحديث. ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله، فقعد بهم العجز، وشملتهم الخيبة، وبهتوا أمام ذلك الإخراج القوى الذى أقفل فى وجوههم كل باب".

١٠ ـ قال الأستاذ "ماسينيون" فى كتابه "محاولة حول أصول المفردات الاصطلاحية للتصوف الإسلامى":

---

[٦٨] ـ انظر صفحة ٦ من مقدمة كتاب "الإسلام" لجاراسان

"... إنما بفضل التصوف كان الإسلام ديناً دولياً وعاماً إنه دولى بفضل الأعمال التقية التى قام بها الصـــوفية فى زياراتهم لبلاد غير المؤمنين، أى بفضـــل المثل الرائع الذى قدمه نســـاك المســـلمين من شـــيوخ الطرق: الكبروية والشـــطرية والنقشـــبندية، الذين كانوا يتعلمون لغات الهنود وســـكان جزائر الهند الشـــرقية، ويندمجون فى حياتهم... هذا المثل هو الذى هدى أولئك القوم إلى الإسلام أكثر مما فعل الغزاة. وأنه عام، لأن الصـــوفية هم أول من فهموا الأثر الخالد الفعال للدين الحنيف، وهو وجود توحيد عقلى طبيعى لجميع بنى الإنسان".

١١ - قال الأستاذ "سلوك هورجرونج" المستشرق الهولندى فى كتابه "سياسة هولندا تجاه الإسلام":

"... إن الإســلام، بفضــل تصــوفه، قد وجد وســيلة صــعوده إلى مكانة مرتفعة يســتطيع منها أن يرى أبعد من آفاقه الخاصــة، أى أن هذا التصــوف مشــتمل على شىء من دولية الدين".

١٢ - قال الأستاذ "بيير بوانسواى" المستشرق الفرنسى فى كتابه الحديث القيم: "الإسلام والجرال":

"... ومما لا ســبيل إلى الشــك فيه إنه كان هناك فى العصــور الوســيطة وئام روحى وتعاليم خفية بين الصــفوة الإســلامية، أى شــيوخ الصــوفية، والصــفوة المســيحية واليهودية، وأن الإســلام قد قام فى أثناء عدة قرون فى هذا الوئام بدور الملهم والمرشد".

ونحن نحســب أن فى هذا التصــريح برفعة الإســلام ودوليته واشــتماله على "التوحيد الطبيعى للبشـرية"، شـهادة من جانب أولئك المسـتشـرقين الأعلام تقطع قول كل خطيب، كما أنها شـهادة لهم أنفسـهم بالنزاهة والبراءة من التعصـب كفيلة بإسكات المتحاملين.

الآن، وبعد كل ما تقدم، نستطيع أن نجزم بأن بحوث المستشرقين عن الإسلام فى تقدم يوشك أن يكون مطرداً نحو الاهتداء إلى الرشاد، وإلى فهم هذا الدين على حقيقته، بفضل دراستهم العميقة لأصوله ومنابعه الجوهرية.

ومن آيات ذلك أن الأســـتاذ "اميل ديرمانجيم" - وهو الذى أخذ عنه الدكتور محمد حســين هيكل كتاب "حياة محمد"- يلاحظ "أن التســرع فى الأحكام قد حال زمناً طويلاً دون دراسة علمية حقة لأصول الإسلام".

ويلاحظ "ديرمانجيم" كذلك أن بعض هؤلاء الاختصاصيين قد هووا، مع الأسف، فى الإفراط فى النقد، فكانت كتبهم - وهى لا تعد فى الحقيقة إلا طلائع للبحث - معاول للهدم، وأنه هو شخصياً قد عول على أن يسلك طريقاً وسطاً بين الإفراط والتفريط، فيتبع الرواية إلى الحد الذى لا يتعارض فيه مع النقد الحر، أى لا يسلم بالمعقول وغير المعقول، ولا يغالى فى الهدم كما فعل بعض المستشرقين الذين عرضوا لدراسة الإسلام.

وقد سلك هذه السبل فوفق إلى كثير من الحقائق، ونكتفى الآن بأن نسجل هنا لهذا الكاتب بعض أحاسن آرائه فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى القرآن، وتلك الآراء التى أدلى بها هذا الكتاب الممتاز يتعلق بعضها بمحمد صلى الله عليه وسلم إنساناً، وبعضها به حكيماً، وبعضها به نبياً.

محمد... إنساناً

نريد الآن أن نشير إلى رأى الأستاذ "ديرمانجيم" فى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم الشخصية، لا لأننا فى حاجة إلى التدليل برأى كاتب أوربى على سمو الأخلاق النبوية إلى أقصى ما تسمح به الطاقة البشرية، ولكن لنبين أن الباحث المحايد الدقيق، إذا بذل أدنى عناية فى البحث، انكشف له من الحقائق ما يبهر اللب بسطوعه ولمعانه. وهاك موجزاً من هذه الآراء:

"إن محمداً قد أبدى فى أغلب حياته اعتدالاً لافتاً للنظر، فقد برهن - فى انتصاره النهائى - على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثال فى التاريخ، إذ أمر جنوده أن يعفوا الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحظر عليهم أن يهدموا البيوت، أو أن يسلبوا الثمار، أو أن يقطعوا الأشجار الثمرية، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا فى حالة الضرورة القاهرة... بل قد رأيناه يؤنب بعض قواده، ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً، ويقول لهم: إن نفساً واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء.

"إن الغنائم الحربية كانت فى ذلك العهد النتيجة العادية لكل جهاد، بل يمكن أن يقال: إنها كانت - مع التجارة وتربية الحيوان - هى الصناعة الوطنية العربية، فأعلن محمد إباحتها لأتباعه استجابة لضعفهم، ولكنه حددها بقواعد دقيقة، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقات ولحاجات الجيش. إنه قد حظر فى قسمة الأسرى إبعاد الأطفال عن أمهاتهم. إنه لم يكن ليستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغييراً تاماً. ولكنه نجح فى أن يقومّه فى نقط كثيرة....

"إنه هو شخصياً لم يكن إلا رجلاً أمياً خلواً من الثقافة تقريباً، كجميع بنى جلدته فى عصره، ولكنه كان يعلم أن الإله رحيم رحمة لا حد لها، فأجهد نفسه فى أن يعلو على الطبيعة البشرية، وأن يقهر فى نفسه الميول الانتقامية، وهو فى هذا يقول: "كاد الحليم أن يكون نبياً"... بل يمكن أن تكون آلامه التى كان يعانيها ناشئة عن أنه لم يلحق الكمال الذى كان يبغيه. إن إخلاصه لا يمكن أن يكون فى العصر الحاضر موضع شك، فإن حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن برسالته إيماناً عميقاً، وأنه تقبلها - لا بغير بطولة - كعبء يجب عليه أن يحتمل أثقل أوزانه...

"إن قوة عبقريته الإنشـــائية واتســـاعها، وذكاءه العظيم، ونظره الصـــائب إلى الحقائق، وسيادته لنفسه، وقوة ارادته، وحكمته واستعداده للعمل وحياته الواقعية... كل ذلك يجعل الزيف فى مبدأ رســالته مســتحيل القبول، فكيف يتصــور أن ينقلب كاذباً فجأة، ذلك الذى كان نجاحه يظهر له كبرهان ســاطع على تأييد الإله لدعواه؟ وكيف يمكن أن يجرؤ على تشويه رسالته فى الوقت الذى كان يرى فيه أنها مقدسة مؤيدة من الإله؟" [٦٩].

[٦٩]- انظر صفحات ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٧ و ١٩٨ من كتاب "حياة محمد" لمؤلفه دير مانجيم

محمد... حكيماً

قال: "إن محمداً كان رجلاً مؤمناً بالعالم الروحانى. إنه ذلك الإنســان الذى للأشــياء الخفية عنده أهمية تفوق أهمية الظواهر الحســية، والذى عنده تتقدم اللامرئيات على المرئيات، والذى يرى أن النظام الروحانى هو النظام الأساسى.... بل إنه هو النظام الوحيد الذى يوجد حقاً. إنه قبض على الحقيقة العميقة، ثم صــدع بين بنى الإنسان باكتشافه. إن هذا القلب الخلو من كل كذب، ومن كل ثقافة مزيفة ومن كل غرور، قد ظفر دفعة واحدة بالصخرة المتينة [٧٠]. وإذ كان واقعياً بالمعنى الكامل لهذه الكلمة (realiste) فقد كان نجاحه فى الحياة العملية - حين وكلت إليه أعمال العالم الخارجى - أتم وأكمل، لأن المرئى هو "مينا" الســاعة التى عليها يرتسم اللامرئى، ولأنه هو جذر النبتة الحقيقية... إذ أن ما هو أدنى، صورة لما هو أعلى [٧١].

محمد.... نبياً

بعد أن لخصنا شيئاً من آراء هذا الكاتب عن النبى ﷺ كإنسان، ثم عنه كحكيم... وجب علينا أن نجمل آراءه عنه كنبى، ولكن بعد أن نشــير إلى آرائه فى النبوة وآثارها فى الإنسانية بوجه عام:

"إن النداءات الداخلية هى، لتاريخ الإنسانية، أشبه الأشياء بمفاصل الجسم البشرى التى تسمح له بأن يتحرك ويؤدى مهمته فى الحياة... فمن وقت إلى آخر ترن دعوة، وتسمع صرخة فى الليل، وينادى صوت فى السكون، فيهب إذ ذاك رجل قافزاً من نومه، ويســير دون أن يدرى إلى أين يتجه بالضــبط - كإبراهيم وإلياس - ثم يستمر فى سيره، بلا راحة ولا فتور، ويظل يتكلم حتى يوقظ الآخرين من نومهم الثقيل. وبهذا يتكون سلام الإنسانية فى سلسلة من الأفعال الحرة.

"وهكذا نهض محمد ليدعو بنى جنســه إلى دين واحد، هو دين الإله الواحد، وليوقظ جزءاً من آســيا وأفريقيا، وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رســالته الحقيقية، ولكى يحرر بلاد فارس التى كان النعاس يشــملها، ولينعش المسيحية الشرقية التى شوهتها المجادلات البيزنطية الخالية من الحماســة ومن الاعتقاد المجرد من الوحدة...

٧٠- هذا تصور لحالة من يهتدى إلى خير من يعتمد عليه، وفيه تشبيه بالغريق الذى يعثر فى وسط الخضم على صخرة متينة يتشبث بها فينجو من الغرق

٧١- انظر صفحتى ٨٠ و ٨١ من كتاب "حياة محمد" لدير مانجيم

"إن الأنبياء يفرضـــون أنفســـهم على العالم كالقوى الطبيعية العظمى الخيرة القاسـية: كالشـمس والمطر، وكعواصـف الشـتاء التى تصـيب الأرض الجرداء لتكســوها بالخضــرة فى بضــعة أيام، فبثمارهم ينبغى أن يحكم عليهم. أن أفضــل براهين رسالاتهم، هى تلك العقول المطمئنة، والقلوب المفعمة بالسكينة، والإرادات القوية، والمخاوف المستحيلة إلى هدوء، والأمراض الأخلاقية التى أبرأوا الإنسانية منها، والصلوات التى تصعد إلى السماء النقية..

"إنهم قد هوجموا بالكبرياء العالمية، وهم بلا معتمد وبلا قوى مادية، ومع ذلك فقد حملوا وحدهم ســر أعلى أنواع الحرية الذى يمكن أن يلخص فى هذه العبارة: لأن تعصــى الناس خير لك من أن تعصــى الإله الذى أمامه وحده يجب أن يســجد الجميع متساوين..."

"إن محمداً كان يجهل كل ما ليس علماً مطلقاً، وكان أمياً بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، وليس معناها - فيما أرى - العامية أو الخلو من التأدب، وإنما الأمى هو بالأحرى الرجل النقى الذى جمع بين الطبيعة وما فوق الطبيعة، والبرىء من الأحكام العقلية والقلبية المتســرعة... ومع ذلك فقد نهض لكى يدعو العلماء إلى أن يفهموا ما يقولون، وليقّوم الطرق الملتوية التى يضـــل فيها من يزعمون أنهم حكماء...

"إن الناس حالة سماعهم خطبه الملهمة، وكناياته الملتئمة مع عصره، قد أحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفى الذى يحوطهم، وخضعوا للإله، فرأوا كيف يستطيعون أن يهدوا وجودهم المؤقت. وهكذا وجدوا فيه مثالاً حياً لا يســتطيع الفلاســفة ولا رجال الحكومات أن يقدموه...

"إن محمداً قد جاء فى عصــر يعد أحد عصــور التاريخ المظلمة، إذ أن جميع المدنيات - من حدود الغال إلى أقاصــى الهند - كانت منهارة أو مضــطربة... إن دعوة محمد قد أوجدت فى جزيرة العرب تقدماً غير قابل للاعتراض، ســواء أكان ذلك فى دائرة الأســرة أم فى دائرة الجماعة، أم فى الناحية الصــحية... فإن حظ المرأة قد تحســن، وإن الفحش والزواج المؤقت والمعاشــرة الحرة قد حظرت، وقد حرم أيضاً إكراه الإماء على اتخاذ الفحش وسيلة لثراء مواليهن، كما كان متبعاً فى ذلك العهد

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

﴿ النور/٣٣ ﴾

"إنـه قد أباح الرق، ولكنه نظمه وضـيق حدوده، وجعل العتق عملاً خيراً، بل كفارة عن بعض المعاصى...

"إن أبا ذر دعا بلالاً يوماً بابن الأمة، فقال له النبى: "إنك لا تزال تشعر بشعور الجاهلية الأولى"...

"إن الإلهيين والأخلاقيين والفقهاء والمتنسكين، قد وجدوا فيما بعد فى دعوة محمد الأسس الأولية لمعارفهم، فاسترشد بها كل منهم فى طريقه الخاص مع حفظ المبدأ الجوهرى، وهو أن الإله هو المحور الرئيسى فى كل شىء. لقد اعتمدت المذاهب المختلفة فى تأسيس آرائها المتناقضة على أحاديث حقيقية أو مزيفة عزيت إلى النبى... بل إن المشكلات الميتافيزيقية العظمى، التى لم يكن محمد يحب أن يلح عليها، قد عولجت فيما بعد استناداً إلى تلك الأحاديث نفسها، ففيما يتعلق بحرية الفرد مثلاً نجد أن الجبرية وخصومهم القدرية قد فتشوا عن أدلتهم فى الكتاب والسُنة، وهذه المسألة قد بسطت بعد ذلك أمام المدرسيين والمسيحيين، كالقديس توماس، وعند بعض المحدثين كبوسويه، والجانسينيين والمولينيين بالعبارة نفسها التى بسطت بها عند العرب، وحلت بالحلول نفسها التى وضعوها لها...

"وفى الواقع أن القرآن يلح على بيان القدرة والعلم الإلهيين الكاملين، ويعلن أن كل شىء آت من الإله، ولكنه يصرح أيضاً بأن الشر وليد الإرادة الإنسانية الفاسدة...

"وبالإجمال: يستطيع الباحث أن يجد فى القرآن نصوصاً لحرية الفرد أو عليها. وهاتان النقطتان هما طرفا السلسلة التى لم يعثر العقل البشرى بعد على حلقاتها الوسطى. فإذا كان المسلمون - وعلى الأخص فى عصور التدهور - قد أبدوا انعطافاً نحو الجبرية الشرقية، فإنه ليس فى الإسلام ما يضطرهم إلى هذه الجبرية، على عكس ما كان "ليبنيز" يعتقد مسايرة للرأى العام.. إذ حين سأل أحد الأعراب محمداً عما إذا كان يكتفى فى حفظ ناقته بالتوكل على الله، أجابه قائلاً: "اعقلها وتوكل". وحينما قيل له: إنه مادام أن كل شىء معلوم لله مقدماً، فإن العمل عبث، قال: كلا "اعملوا فكل ميسر لما خُلق له". وهذا معناه: "ساعد نفسك تساعدك السماء". وقال كذلك: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً". وهذا هو الحل الذى ارتضته الأخلاق، فشهد لها بالحكمة".

لننظر الآن فى رأى هذا الكاتب فى القرآن وإعجازه، بعد أن ذكرنا رأيه عن النبى، قال:"إن كل نبى يجب أن يأتى ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته. وهذا البرهان يسمى بالمعجزة، وهو يختلف عما يأتى به الأولياء، ويسمى كرامة... والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة، فإن جماله الأدبى الفائق وقوته النورانية، لا يزالان إلى اليوم لغزاً لم يحل، وهما يضعان من يتلوه - ولو كان أقل الناس تقوى - فى حالة خاصة من الحماسة.

"لقد تحدى محمد الأناسى والجن أن يأتوا بمثله. وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل. ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية، فإن محمداً كان يحتقر الشعراء، ودفع عن نفسه أن يكون واحداً منهم... ولكن الأمر يتعلق بشىء آخر غير هذه القيمة، وهو الفرق بين وحى الإله والهام الشياطين".

*****

والفضل ما شهدت به الأعداء!

وإذا كنا نحن المؤمنين بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، على يقين ثابت - والحمد لله - من أن سيرة نبينا ذاخرة بمكارم الأخلاق، فقد قيض الله لهذه السيرة العطرة من يشيد بها، ويوقر صاحبها من الكُتاب والمؤرخين المنصفين من غير المسلمين.. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

جاء فى دائرة المعارف البريطانية - وهى من أهم المصادر العلمية المعترف بها فى العصر الحديث - تحت مادة (محمد):

"قليلون هم الرجال الذين أحدثوا فى البشـــرية الأثر العميق الدائم الذى أحدثه محمد، لقد أحدث أثراً دينياً عميقاً، لايزال منذ دعا إليه حتى الآن هو الإيمان الحى، والشـــريعة المتبعة لأكثر من سُـــبع ســـكان العالم.. على أن أثره التاريخى يبدو بـالأكثر، عندما نذكر أنه فى أقل من عشـــرين ســـنة منذ بدأ دعوته، قوض دعائم امبراطوريتين عتيدتين، هما الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارســـية، مؤسساً على أنقاضهما حضارة جديدة.

"ولقد أرســـى منذ جاء بدعوته التى هى عقيدة وشـــريعة، قواعد بناء المجتمع الاجتماعية والســياســية، وقد أعقب موته، أن ســجل خلفاؤه الأحاديث التى رويت عنـه، وأدق التصـــرفات والأفعال التى قام بها، فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث التى رويت عنه، وأدق التصــرفات والأفعال التى قام بها، فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراساً ومثلاً أعلى يحتذونه فى حياتهم اليومية، جيلاً بعد جيل"...

وفى "موســوعة تاريخ الحضـــارة الإنســانية" قال مؤلفها العالم الأمريكى ول دورانت بعد أن استعرض تاريخ نبينا محمد ﷺ:

"وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس، قلنا إن محمداً كان من أعظم عظمأ التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشـعب ألقت به فى دياجيرالهمجية، حرارة الجو، وجدب الصـحراء. وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانيه فيه أى مصـــلح آخر فى التاريخ كله.. وقلّ أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به.. واستطاع فى جيل واحد أن ينشىء دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا، قوة ذات خطر عظيم فى نصف العالم" [٧٢].

ويقول شاعر فرنسا العظيم لامارتين:

"إن حياة مثل حياة محمد، وقوة كقوة تـأمله وتفكيره وجهاده، ووثبتـه على خرافات أمته، وجاهلية شعبه، وشدة بأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وإيمانه بالظفر، وإعلاء كلمته، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية.. إن كل ذلك أدله على أنه لم يكن يضـــمر خداعاً، أو يعيش على باطل. فهو فيلســـوف وخطيب ورســـول، ومشـــرع وهادى الإنســـان إلى العقل، وناشـــر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب، ومؤســـس دين لا فرية فيه، ولا صـــور ولا رقيات، فأى رجل أدرك من العظمة الإنســـانية مثل ما أدرك؟.. وأى إنســـان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ؟" [٧٣].

*****

---

[٧٢]- قصة الحضارة: ترجمة محمد بدران ج ٢

[٧٣]- المستشرقون والإسلام: تأليف زكريا هاشم زكريا

يقول هاملتون جيت أستاذ اللغة العربية فى جامعات لندن واكسفورد وهارفارد والذى له باعه الذى لا يجارى فى دراساته عن الإسلام، حيث قدم العديد من الكتب والدراسات والأبحاث الإسلامية المستقاة من المصادر الوثيقة المعبرة عن الشموخ الإسلامى، الذى أحبه، فأعطاه المزيد من الاهتمام.

فنجده قدم كتابه "ها هو الإسلام" عام ١٩٣٢.

حيث قدم الدين الإسلامى بتعاليمه السهلة، فقال:

الإسلام دين جاء ليقدم للأذهان، الصورة الحقيقية للإنسان وكيفية تعامله مع أخيه الإنسان.

الإسلام جاء ليكمل الرسالات جميعاً، فلم نجده أنكر على الأديان التى سبقته، كتبها ولا تعاليمها، ولا حتى أنبياءها.

والإسلام، مجسد فى خلق النبى الأعظم، الأكمل، محمد بن عبد الله الذى رباه الخالق، الذى أنزل عليه الرسالة الخاتمة.

ولا شك أن الإسلام (هو) محمد.

ولا شك أيضاً أن محمدا (هو) الإسلام.

وأظن، بل أعتقد وأرى رؤى العين والقلب والعقل، أن الإسلام، فى طريقه ليحتل مكانته اللائقة فى هذا العالم، وأرجو أن أحيا لأرى هذا اليوم.

وللسير هاملتون جيب، كتب عن:

الآثار الإسلامية ١٩٤٤.

الاتجاهات الحديثة والغرب الجزء الأول ١٩٥٠ – الثانى ١٩٥٧، وترجم إلى العربية عام ١٩٦٣، بالقاهرة.

وصدر له أيضاً:

كيان التفكير الدينى الإسلامى ١٩٦١

الحكومة والإسلام فى صدر العصر الجاهلى الأول ١٩٦٢.

دائرة المعارف الإسلامية الموجزة ١٩٦٣.

الثقافة الإسلامية والخلافة فى الإسلام.

تفسير التاريخ الإسلامى – العالم الإسلامى.

أثر الثقافة الإسلامية فى أوروبا.

تطور الحكومة فى صدر الإسلام – نضج الإسلام.

التراجم الأدبية الإسلامية.

تاريخ الطائفة الإسلامية.

الدين والسياسة فى النصرانية وفى الإسلام ١٩٦٥.

وآخر كتبه من جزأين هو: تراث الإسلام ١٩٧٠.

ولا يمكن أن يكون هذا الحشد من الكتب، قد جاء من فراغ.

بل جاء من واقع الحب الذى كان يحمله "جيب" للإسلام ورسوله ﷺ وتأتى إلى بعض من آرائه التى أنصف بها الإسلام ورسوله حيث يقول:

لم أجد فى الإسلام عنصرية واضحة أو مستترة.

الحكم بالإسلام، ضرورة لانقاذ العالم من شر من يحكمون.

أنصف الإسلام وتفوق على نفسه، باحترامه الأديان الأخرى.

لم أجد دينا يحترم الإنسان، سوى الإسلام.

حقيقة، اســـتطاع نبى الإســـلام بأخلاقه العظيمة أن يرســـى بالإســـلام قواعد الإنسانية.

جعل الإسلام، الجزيرة العربية قاعدة راسخة إلى الأبد:

الإسلام شمس لن تغيب، وان غيبت.

حقيقة الإسـلام، نابعة من القرآن الكريم الذى ما ترك شـيئا فى الدنيا إلا ولمسـه، وقدمه، وقدم له، وأعطى أيضاً مفاتيح المستقبل لأصحاب العقول.

احترم الإسلام عقلى، إذن هو جدير بالتقدير والاحترام.

ويقول ادواردلين الذى يعتبر من آئمة المســـتشـــرقين، حيث كتب العديد من الدراسات عن القرآن والآداب الإسلامية، ونبى الله ورسول، والأخلاق العربية،

فنجده يقول:

لم أكن قد عرفت اللغة العربية، ومع ذلك أحسست بارتياح شديد، وأنا استمع إلى القرآن الكريم، يقرأ قراءة عادية، وكنت أحس بشدة الفرح والسرور والسعادة، حينما كنت أسمعه يتلى فى أحد المآتم، ولم يكن هناك جهد منى فى تعلم اللغة العربية، حيث استوعبتها، وأصبحت أكتب وأقرأ وأتحدث وأخطب بها، لكنى ما استطعت أن أتلو القرآن الكريم، بنفس الحلاوة والطلاوة التى كنت أسمعه بها من القارئ المصرى فى الأفراح والأحزان، ومختلف المناسبات.

لكنى استوعبت القرآن الكريم، عرفته تماما، تمنيت لو عرفه العالم كله.

لكن عملية الترجمة الحرفية للقرآن عملية صعبة، والمفروض أن تأتى الترجمة الصادقة، من فاهم للقرآن، إلى فاهم اللغة التى سيترجم إليها، حتى تخرج الترجمة صادقة من محب للقرآن أولا. حتى تصل إلى الآخرين بنفس الصدق الذى تمت به عملية الترجمة.

ولأن العالم فى أوروبا، لابد أن يعرف القرآن، لابد أن يقدم بترجمة واعية، مدركة أبعاد معانيه، حتى يعرفوا أنه جاء لهم أيضاً.

وعن الأخلاق العربية يقول:

الإصول المحمدية، راسخة فى عمق الأخلاق العربية، حيث استطاع أن يؤثر برسالته، ليغير من الجذور، الأخلاق التى كانوا عليها قبل الإسلام، لتصبح أخلاقا عربية إسلامية ويطلق عليها الأخلاق العربية.

فالأخلاق التى كان عليها الرسول الكريم – قبل وبعد الرسالة – أصبحت كل شئ عاشته وتعيشه الجزيرة العربية، والعرب عامة، والمسلمون كافة.

وما وجدت سوى هذه الأخلاق أرفع ولا أعظم ولا أبدع.

فعلا، ما كان ينطق عن الهوى.

والذين يحاولون طمس الخلق المحمدى، ما هم إلا جهلة على الصعيد العالمى.

فالنبى محمد ﷺ، جاء بالأخلاق، وهى أخلاق عاشت، وستظل إلى يوم البعث قائمة، ولن ينال المغرضون، الكارهون، لنبى الإسلام، منه شيئاً، وسيظل الإسلام شامخاً بقرآنه وبالنبى محمد ﷺ، رغم أنف الكارهين.

والإسلام، هو الدين الذى جاء ليضئ للعالم الطريق إلى حياة أفضل.

وعن تجربته لو لم يعتنق الإسلام دينا، قال ادوارد لين أو الشيخ منصور:

"الذى يقترب من الإسلام، يقترب منه الإسلام، فيضفى عليه، جلالا ووقارا، فالإسلام رغم أنه عبادة عظيمة فهو بقرآنه الكريم، يحمل كل العلوم فى هذا الكتاب الالهى، وكنت أود أن أعرف مكنونات القرآن، لكنى رغم بحثى، أقول، ما أوتيت إلا قليلا".

وليت الذين يبحثون ويدرسون بحب، كتاب الله الكريم، يتوصلون الواحد بعد الآخر، إلى اللغز القرآنى الذى لا يمكن أن يفكه الا المختارون بعناية الله.

* أما جوتيه المستشرق الفرنسى: فى كتابه "أخلاق المسلمين وعاداتهم" فقد استطاع بحسه الذى عايش به المسلمين وغير المسلمين، أن يؤلفه بصدق، فنجده يقول:

"لم أجد دينا يدعو معتنقيه إلى تسامح السماء، بكل ما تحمل كلمة تسامح من معان سامية، إلا ما رأيت، وأحسست، وعايشت الدين الإسلامى.

أما الدين الإسلامى، فهو الدين الوحيد الذى استطاع معتنقوه أن يحققوا به عدالة السماء، فى التسامح الذى هو سمة المسلمين مع الديانات الأخرى "المسيحية – اليهودية" بعكس الديانات الأخرى.

أصبح الإسلام، على قمة التسامح الدينى، لأنه جعل كل الأديان فى حضانته، تحس بالأمان ويحس أصحابها بكل الاستقرار، بعيدا عن التشنجات التى كانت ومازالت تحملها الأديان الأخرى، حتى الوضعى منها.

ولاشك أن سماحة الإسلام، جعلت معتنقى الديانات الأخرى، يحسون بأن تعصبهم، أعمى وتافه، لأن التسامح هو العلامة الصحيحة، للدين، إن كان بالفعل يدعو إلى الحب والسلام، فلا يمكن أن يكون التعصب منهجه.

ولا شك أن التسامح بمعناه الإلهى، غرسه رسول الإسلام، فى نفوس المسلمين، فقد كان ﷺ، المتسامح الأكبر.

كان المتسامح الأكبر، أمام اعتداءات أصحاب الديانات الأخرى، وأمام ارهاصات وتخريفات اللادينيين.

ولم يتخذ رسول الإسلام، موقفا صعبا، ضد كل الذين كانوا يعتدون عليه بالسب، أو بمد الأيدى، أو بعرقلة الطريق أو ما شابه ذلك، فقد كان متسامحاً، فتبعه صحبه، وتبعه المسلمون، وكانت ومازالت صفة التسامح، هى إحدى المميزات والسمات الراقية، للدين الإسلامى.

وللحق أقول، إن تسامح المسلم، ليس من ضعف، ولكن المسلم يتسامح، مع اعتزازه بدينه، وتمسكه بعقيدته".

* وهذا المفكر الفرنسى المعروف جاك بيرك الذى له دراسات عديدة عن العالم العربى، خاصة، المغرب، ومصر منشورة، وأيضاً دراسات منشورة عن الإسلام، والتاريخ الإسلامى نأخذ منها:

الإسلام ضرورة ستفرض نفسها ذات يوم، لأن الإسلام هو الدين الحق، الذى جاء بسيطا فى تعاليمه، قويا فى تنفيذ هذه التعاليم.

ولو أن الإسلام وجد دعاة حقيقين، يدعون إليه، لساد العالم السلام الذى ينشد.

الإسلام يواجه ويحارب منذ جهر به رسوله بتحديات تكبر مع الأيام، لأنه لو أصبح دين العالم، لساد الحب الذى يكرهه تجار السلاح.

الإسلام ضرورة، وحقيقة، وإلا حورب.

لكن حيث توجد القوة، تجد محاربيها.

وكارثة العقل البشرى فى هذا الزمان، أنه يحارب كل ما هو قريب من القلب دائماً.

لكن رغم تقاعس المسلمين، ودعاتهم إلى الدعوة، بصدق الإسلام، إلا أنه – الإسلام – قد وجد دعاة جدد.

ذلكم الدعاة، هم الداخلون إليه، من أوروبا، حيث الكثرة الهائلة من الأوروبيين، الذين اعتنقوا الإسلام دينا.

وأرى أن الدعاة القادمين من أوروبا، للإسلام، سيكونوا أكثر قوة من دعاة الإسلام الذين تقاعسوا.

ولا أشك، فى أن الداخلين فى دين الإسلام، سيتعرفون على القرآن، الذى هو المنهل والمنبع الدائم للحقيقة، التى جاء بها محمد بن عبد الله.

ولا شك أن الإسلام، الذى اختار الخالق له، محمدا، كان جديرا بمحمد، وكان محمد جديرا به.

ولا أشك، أن دراسة الداخلين إلى الإسلام، من أوروبا، لحياة رسول الإسلام، ستمر عليهم، دون أن يكون لكل كلمة فى حياته لهم اضاءة لطريقهم، ودون أن تكون لكل خطوة من خطواته، طريقا لهم.

وساعة أن يعرف هؤلاء الإسلام ورسوله أضمن دعاة للإسلام على مستوى لائق بالإسلام.

وأرى هذا اليوم آت قريب.

* أما تولستوى الأديب الروسى والذى اهتم بالدين الإسلامى، فقرأ عنه، وقرأ فيه، وتبادل حوله الرسائل مع أئمة الإسلام، ومنهم الشيخ محمد عبده يقول تولوستوى عن الإسلام:

الله واحد لا إله إلا هو، عادل، رحيم، مصير الإنسان فى النهاية.

هذا ما جاء به محمد نبى الإسلام، فى دينه.

لذا، لا يجوز بعد هذا الدين، عبادة أرباب أخرى.

وعلى الإنسان أن يتمسك بتعاليم الله الواحد، لتكون نهايته، الأجر الحسن.

أما إذا اتبع الشيطان، وخالف شرع الله، فإنه فى الآخرة، ينال عقابا شديدا.

وإذا كان الإسلام، هو الذى دعا إلى أن الله واحد، وأن كل شئ زائل، ولا يبقى بعد الزوال، إلا الله.

فإنه لا يمكن أن تكون هناك حياة، حقيقية، إلا بتنفيذ، تعاليم هذا الدين، الذى ينادى بما أمر به الله الواحد، من محبة بين الناس، ومشاركة البعض للبعض، فى السراء والضراء.

وأنا واحد، من المبهورين، بالنبى محمد ﷺ، الذى اختاره الله الواحد، لتكون آخر الرسالات على يديه وقلبه وعقله، ليكون هو أيضا، آخر الأنبياء، حيث لم يأت ولن يأت بعده، جديد، اعتراف محمد، بالأنبياء الذين سبقوه، بتكليف من الاله الواحد، ليقدموا البناء الاجتماعى العالمى، الذى جاء يستكمله، دليل لا يقبل الشك، فقد جاء محمد ليستكمل بالإسلام، البناء الاجتماعى للإنسان فى كل مكان.

لم يضغط النبى محمد ﷺ، بأى طريقة، على أصحاب الديانات الأخرى، ليدخلوا فى دينه، وكذلك يفعل المسلمون الآن.

تحمل النبى محمد ﷺ، عذابات كثيرة، فى سبيل أن تصل دعوته للجميع، ولذلك دون أن يشهر سيفا.

على العكس، لاقى النبى محمد ﷺ، اضطهاداً حتى من الذين اعترف بأديانهم، وأنبيائهم، بل كانوا على رأس أعدائه، ومع ذلك ثابر وصبر، واستطاع أن يتم رسالته كاملة، واستلهمها أصحابه من بعده.

لا يوجد نبى، حظى باحترام أعدائه، سوى النبى محمد ﷺ، مما جعل الكثرة من الأعداء، يدخلون الإسلام.

الذى يدعو للغرابة، أن الذين كانوا يناصبونه العداء، كانوا يعرفون حق المعرفة، أن محمدا ﷺ على حق، وأنه يدعو لدين حق، وكانوا فى قرارة نفوسهم، يحترمونه، لكنهم كتموا هذا الاحترام، حتى لا يتهموا بالبعد عن معتقداتهم.

ومما لا ريب فيه أن النبى محمدا ﷺ، من أعظم الرجال المصلحين، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية، خدمات جليلة، ويكفيه فخرا، أن هدى مئات الملايين، إلى نور الحق، وإلى السكينة والسلام، وفتح للإنسانية طريقا للحياة الروحية العالية، وهو عمل عظيم، لا يقوم به شخص، إلا أوتى، قوة، والهاما، وعونا من السماء.

*****

هذه مجرد نماذج لعشرات غيرها، مما أصبح الكُتاب والمؤرخون المنصفون من غير المسلمين، يرددونه فى الآونة الأخيرة، عن نبى الإسلام، ورسالته التى كان لها عظيم التأثير على البشرية والعالم. لقد حرصت على ذكرها لأنبه إلى أن أتباع الرسول محمد ﷺ ، مطالبون اليوم أكثر من أى وقت مضى بالوقوف على عظمة نبيهم، والذى لم يستطع حتى غير المؤمنين به نبياً ورسولاً أن يغفلوها.. لا لمجرد العلم بهذه العظمة، وإنما للاقتداء بها، والسير على منهاجها، وحينئذ يصبحون ممن يشملهم قول الله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿الأحزاب/٢١﴾

وحين يصبحون كذلك.. سيتخلقون بأخلاق الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى الجود والكرم، والجرأة والشجاعة، والصدق والوفاء، وطيب العشرة، وكرم المعاشرة، والأمانة والعدل والمساواة، والصبر والرحمة، وغيرها من الأخلاق العظيمة الفاضلة.

وحين يتخلقون بهذه الصفات، أسوة برسولهم صلى الله عليه وسلم، فإن السعادة والخير والأمن والأمان، وكل ما تصبو إليه قلوب العباد ونفوسهم، سيكون متاحاً لهم، وفى متناول أيديهم إن شاء الله.

مراجع البحث

السيرة العطرة محمد خاتم الرسل ﷺ	المستشار عبد العزيز خير الدين
الدعوة إلى الله	محمد الغزالى
مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية	المستشار على على منصور
التربية الإسلامية بين العقيدة والأخلاق	د. محمد فريد حجاب
عظمة الإسلام	محمد عطيه الإبراشى
سماحة الإسلام وحقوق غير المسلمين	نخبة من كبار المفكرين وعلماء الإسلام
عبقرية محمد ﷺ	عباس محمود العقاد
الرسول القائد ﷺ	محمود شيث خطاب
السيرة النبوية	ابن هشام
آثار الحرب فى الفقه الإسلامى	د. وهبه الزحيلى
الحرب والسلام فى الإسلام	عبد الكريم الخطيب
الحرب والسلام فى شرعة الإسلام	د. مجيد خدورى
حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة	محمد الغزالى
حضارة العرب	غوستاف لوبون
البداية والنهاية	ابن كثير
الأم	الإمام الشافعى
المغازى	الواقدى
حياة محمد ﷺ	محمد حسين هيكل
تاريخ الإسلام السياسى والثقافى والاجتماعى	حسن محمد حسن
الحرب عبر التاريخ	فيكونت مونتجمرى
العدالة الإجتماعية	سيد قطب
غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى	د. يوسف القرضاوى

الحرية الفكرية وترشيد العقل فى الإسلام	د. عاصم أحمد عجيله
فقه السنة	سيد سابق
الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير	السيوطى
السلوك الاجتماعى فى الإسلام	حسن أيوب
حياة محمد	إميل ديرمانجيم
المحمدية	كارادى فو
محمد ونهاية العالم	كازانوفا
دراسات فى التاريخ الدينى	ليبون
قصة الحضارة	ول ديوارنت
المستشرقون والإسلام	زكريا هاشم زكريا
الرسالة الخالدة	عبد الرحمن عزام
غزوات الرسول ﷺ	لواء جمال الدين محفوظ